تحدي البديهة

الحكمة غير المألوفة لعلم الاقتصاد

ستيفن لاندسبيرج

تحدي البديهة

تحدي البديهة

الحكمة غير المألوفة لعلم الاقتصاد

تأليف: ستيفن لاندسبيرج
مؤلف كتاب «فيلسوف الاقتصاد»

ترجمة: مجدي عبد الواحد عنبة



تحدي البديهة
الحكمة غير المألوفة لعلم الاقتصاد

ستيفن لاندسبيرج

More Sex is Safer Sex
The Unconvential Wisdom of Economics

Steven E. Landsburg

الطبعة الأولى ٢٠٠٨
ISBN 978 977 6263 00 0

كلمات عربية للترجمة والنشر
٤٣ شارع ابن قتيبة، حي الزهور، مدينة نصر، القاهرة ١١٤٧١
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإليكتروني: kalematarabia@kalematarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalematarabia.com

لاندسبيرج، ستيفن
تحدي البديهة: الحكمة غير المألوفة لعلم الاقتصاد / ستيفن لاندسبيرج . –
القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨
٢٩٦ص، ١٤,٥×٢١سم
تدمك: ٠ ٠٠ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
1– الاقتصاد – نظريات
أ– العنوان
٣٣٠,١

إلى ميناء الوطن
بكل مظاهره
و
إلى ليزا
أجمل مفاجأة في حياتي

المحتويات

شكر وعرفان

يتحدث هذا الكتاب عن التطبيقات غير التقليدية لعلم الاقتصاد التقليدي. وإنني أدين بالعرفان أول ما أدين إلى كثير من المفكرين المبدعين الذين ابتكروا هذه التطبيقات، والذين ذُكِرَ بعضهم في متن الكتاب وذُكِرَ البعض الآخر في ملحق الكتاب.

وأدين بالعرفان إلى المحررين في مجلة سليت Slate الذين منحوني طيلة عشر سنوات حرية مذهلة في أن أكتب عن أي شيء يجول في خاطري. ظهرت بعض المسائل الواردة في هذا الكتاب أول ما ظهرت في العمود الصحفي الذي أكتبه في مجلة سليت وإن كان معظمها قد نُشر بالمجلة على نحو مختصر، أما في هذا الكتاب فقد استغللت الفرصة كي أعبر عنها تعبيرًا مفصلًا.

وأدين بالعرفان إلى الآلاف من قراء مجلة سليت الذين اتصلوا بي أحيانًا للتعليق على نقاط تحتاج مزيدًا من التوضيح، وأحيانًا أخرى للتعليق على نقاط كنت مخطئًا فيها. وقد تحولت صورة عدد من الفصول في هذا الكتاب كثيرًا نحو الأفضل بفضل ما تعلمته من قرائي.

وأدين بالعرفان إلى أعضاء المجموعة الذين كنت أتناول معهم طعام الغداء يوميًّا، والذين وضعوا الكثير من هذه الأفكار تحت منظار بحثهم الدقيق، وأسهموا في إثراء ثقافتي العامة: أدين بالشكر على وجه الخصوص إلى مارك بيلس، وجوردون دال، وأوتا شونبيرج، وآلان ستوكمان، ومايكل ولكوف. لقد أسهمت ملحوظاتهم جميعًا وانتقاداتهم في تحسين الصورة التي ظهر عليها هذا الكتاب.

وأدين بالعرفان على نحو خاص إلى مارك بيلس الذي سرقت منه الكثير من الأفكار والرؤى بحيث كان من الواجب أن يطلق عليه «شريك» في تأليف الكتاب.

وأدين بالعرفان إلى مجموعة المستشارين الأذكياء من غير الاقتصاديين الذين ساعدوني في فهم كل ما استغلق عليّ فهمه، وساعدوني في العثور على الكلمات المناسبة للتعبير عن بعض الأفكار الصعبة. أشكر على وجه الخصوص ديانا كارول، ومايكل رايموند فيلي، وشارون فينك، وناثان ميل، وتيم بيرس، وجون روزفير، وإيلين كين سيباشر، وليزا تالبي. وإنني أثق تمام الثقة أن قائمة الأسماء التي ذكرتها ليست كاملة.

وأدين بالعرفان إلى تشجيع ومساعدة بروس نيكولس في دار نشر فري برس.

وأدين بالعرفان إلى والديّ لكونهما فخورين بي مع أنهما غير متقبلين لعنوان الكتاب، وأشكرهما أيضًا على كثير من الأمور التي توصلت إليها.

مقدمة

الحكمة غير المألوفة

يُحدثك المنطق العام قائلًا: إن الانحلال الجنسي ينشر مرض الإيدز، وإن النمو السكاني يهدد الرفاهية، وإن البخلاء هم جيران سوء. وفي حقيقة الأمر فإنني قد كتبت هذا الكتاب لمهاجمة هذا المنطق.

أسلحتي هي الدليل والمنطق، وخصوصًا منطق علم الاقتصاد، ويعتبر المنطق أعظمَ مُرشد — وبالتأكيد أكثر الأمور إمتاعًا — حينما يدعونا لكي نرى العالم برؤية جديدة تمامًا، وهذا الكتاب يُعنى بهذا النوع من المنطق.

إنجاب الإناث يتسبب في الطلاق، والتعطش إلى الانتقام أفضل من التعطش للذهب، وحظر صيد الفيلة من الأنباء المشئومة للفيلة، ومساعدات الإغاثة عند وقوع الكوارث من الأنباء المشئومة — أيضًا — لمن يقبلون هذه المساعدات، أما أولئك الشريرون من مخترقي الحاسبات فيجب إعدامهم، وأكثر الناس إحسانًا هم من يتبرعون لأقل عدد ممكن من المؤسسات الخيرية، وكتابة الكتب عمل يخلو من المسئولية الاجتماعية في حين أن دفعك الناس للوصول إلى أول طابور صنبور المياه في المتنزهات العامة لا يُعَدّ كذلك. ويحصل طوال القامة وأصحاب الأجساد الرشيقة ومن يتسمون بجمال الخِلْقة على رواتب أعلى، لكن ليس للأسباب التي قد تظنها!

كل جملة من الجمل السابقة هي أقرب إلى الحقيقة بأكثر مما تظن. فإذا أخبرك المنطق العام عكس ذلك، فتذكر أن منطقك العام يخبرك أيضًا أن الأرض مستوية وليست كروية.

إن ما توشك أن تقرأه هو بمنزلة احتفال بكل ما هو مخالف ومبتدع وواضح وغريب في آن واحد. أعني كل كلمة كتبتها في هذا الكتاب، وفي نفس الوقت فإن كل كلمة هي متعة في حد ذاتها. يقدم هذا الكتاب براهين مدروسة بعناية شديدة عن أمورٍ مهمة في الحياة، ولكنها أيضًا براهين مدهشة، والدهشة متعة. يمنحك هذا الكتاب فهمًا جديدًا للكيفية التي يسير بها العالم، وهو قد يثير غضبك أحيانًا ولكنني أتمنى أن ينجح أيضًا في رسم الابتسامة على شفتيك.

الباب الأول

القناة المائية المشتركة

إذا زرتَ الضاحية التي أقطن بها في صباح أي يوم سبت من أيام شهر أكتوبر المنعشة، فسوف أريك حدثًا مأساويًّا صغيرًا، حيث تجد على كل مرج من المروج الخضراء الموجودة أمام المنازل رجلًا يقف ممسكًا بجهاز نفخ أوراق الشجر، ويقوم بنفخ أوراق الشجر المتساقطة على المرج الأخضر الموجود أمام منزله، إلى ذلك الموجود أمام منزل جاره، ثم يدخلون جميعًا بعد ذلك منازلهم ليستريحوا من عناء عمل صباحي شاق وإن كان عديم الجدوى تمامًا.

هذه طريقة سيئة لقضاء يوم السبت، ويمكن أن نكون جميعًا أسعد حالًا إذا تخلصنا من أجهزة نفخ أوراق الشجر وقضينا ذلك اليوم داخل المنزل نشاهد مباراة لكرة القدم. ولكن لسوء الحظ فإن القدر الفائق من الرشد الذي يتصف به بنو البشر يحول بينهم وبين إدراك هذه الحقيقة. ويمكن أن نقول إنه مهما كان يصنع جيرانك فإن نفخ أوراق الشجر يُعَدّ دائمًا من الأمور المقبولة. وإذا قام الجميع بنفخ تلك الأوراق، فيستحسن أن تفعل أنت أيضًا نفس الأمر لتتجنب ذلك الكم الهائل من الأوراق الذي سيغطي المرج الأخضر أمام منزلك من كل جانب حينئذ، أما إذا اتفق الجميع على عدم نفخ تلك الأوراق، فإن خيانة هذا الاتفاق ونفخك لأوراق الشجر ستكون أفضل استراتيجية يمكن أن تتبعها حيث سيكون أمام منزلك المرج الأخضر الوحيد النظيف في الضاحية.

يُعْنَى علم الاقتصاد بوجه عام بالعواقب المفاجئة للسلوك الرشيد التي تكون أحيانًا مأساوية، فحينما يكون هناك لحظة مثيرة على أرض ملعب الكرة،

فإن الجميع يقف في مدرجات الملعب محاولًا الحصول على وضع مشاهدة أفضل، ويفسر هذا السبب عدم حصول أحد على وضع المشاهدة الذي كان يتمناه. وفي الحفلات التي يتحادث فيها الحضور كثيرًا في آن واحد، يحاول كل شخص التحدث بصوت عالٍ حتى يسمعه الآخرون دون غيره، وينتهي الأمر بأن يعود الجميع لمنازلهم مصابين بالتهاب في الحلق. ومع ذلك ما يزال الوقوف في مدرجات ملعب الكرة من السلوكيات الرشيدة، وكذا الصياح في الحفلات، فنحن نقف ونصيح لنفس السبب الذي يدعونا لنفخ أوراق الشجر، وهو السبب النابع من الاهتمام الشديد (الرشيد تمامًا) بمصالحنا، وليس بسبب الضرر الذي يمكن أن يلحق بجيراننا على نحو غير مباشر.

من المبادئ العامة في علم الاقتصاد أن «النتائج تكون أفضل حينما يجب على الأفراد أن يحيوا متحملين العواقب الخاصة بسلوكهم»، أو لنقُلْها بطريقة أخرى: «إن النتائج تصبح سيئة حينما تنصب عواقب أفعالنا على الآخرين.» ومع السهولة والوضوح اللذين يبدوان في هذا المبدأ العام فإن لديه القوة على تدمير موروث هائل من الحكمة المألوفة؛ فهذا المبدأ يشير إلى أن العالم يحتوي على عدد ضئيل للغاية من البشر وكذا عدد ضئيل من البخلاء وفي نفس الوقت عدد غير كاف من العلاقات الجنسية التي تمارس خارج نطاق الزواج، وإن كان به القدر الصحيح من الدخان المستعمل وعمالة الأطفال. يقر هذا المبدأ أيضًا أن التعطش للذهب هو أمر مدمر على المستوى الاجتماعي في حين أن الميل إلى الانتقام يمكن أن يُنظر إليه باعتباره من الأمور المستحبة اجتماعيًّا. وبالإضافة إلى ذلك، يلقي هذا المبدأ الضوء على السبب الذي بموجبه يحصل طوال القامة وأصحاب الأجساد الرشيقة ومن يتسمون بجمال الخِلْقة على رواتب أعلى، ويقترح المبدأ إصلاحات هائلة في النظامين القضائي والسياسي وقانون الضرائب، ويرد على من يعارضون فكرة دخول القادمين الجدد إلى أول الطابور وليس آخره أمام صنبور المياه في المتنزهات العامة، وهو يشرح أيضًا السبب وراء الارتفاع الباهظ لأسعار التأمين على السيارات في فيلادلفيا.

يخبرنا المبدأ العام السابق ذكره — على نحو يظهر اقترابه الوثيق من عالمنا — أن هناك كمًّا هائلًا من النفايات في الشارع، وهو أمر أقل وضوحًا

مما قد تظن. يوجد كثيرٌ من القمامة بكل تأكيد، ولكن كلمة «الكثير» ليست بالضرورة مرادفًا لقولنا «كمًّا هائلًا.» وعلى أية حال، فإن بعض القمامة «يجب» أن توجد في الشارع؛ لأن البديل سيكون شيئًا أسوأ من القمامة؛ أيكون هناك ذلك الساندوتش الذي مشيت عليه لتوك والذي ربما قضم أحدهم منه قضمة ثم ألقاه في عرض الطريق لتجنب لدغة مؤلمة من نحلة جذبتها رائحة الساندوتش؟ أم سيكون هناك تلك الجريدة الملتفة حول كعب قدمك التي ربما تطيح الرياح بها بعيدًا إلى حيث يبحث أحدهم عن إقراره الضريبي الذي سقط للتو من حافظته؟ أما إذا أصابتك أزمة قلبية وأنت تمشي في الشارع مستمتعًا بتناول الآيس كريم فإن أحدًا لن يقول إنك كان ينبغي عليك إلقاء الآيس كريم في أقرب سلة قمامة أولًا قبل أن تسقط على الأرض بين الحياة والموت!

يمكن من حيث المبدأ أن تكون القمامة موجودة على الأرصفة في كل مدن العالم، وذلك لأسباب وجيهة، ولكنني في الحقيقة على يقين بأن هناك بالفعل «كمًّا هائلًا» من القمامة في الشوارع، وقد توصلت إلى هذا الاستنتاج بالطريقة الآتية: من الطبيعي أن من يرمي قشر الموز في الشارع ومن يسقط على نفس القشر ليسا عادة هما نفس الشخص. يبين ذلك إلى حد بعيد أن الناس عادة ترمي قشر الموز حتى ولو كانت التكلفة (لمن يمرون بالشارع) تفوق المنفعة (لمن يلقي القمامة في الشوارع). وفي الحقيقة، ففي كل مرة يحدث فيها هذا الأمر يصبح العالم مكانًا أكثر سوءًا وهو ما كنت أعنيه من قبل عندما قلت: إنّ هناك كمًّا هائلًا من القمامة.

أعني بقولي «كمًّا هائلًا» إنه ليس مجرد حكم شخصي على صواب أو خطأ هذا الأمر، بل يعني بالتحديد أنه في ظل عالم تقل فيه القمامة يمكن أن نكون جميعًا أسعد حالًا، مثلما سنكون جميعًا أسعد حالًا في ظل عدد أقل من أجهزة نفخ أوراق الشجر، وفي ظل منع الوقوف في مدرجات ملاعب الكرة.

توجد التكاليف والمنافع في كل فعل من أفعالك، سواء كنت تنفخ أوراق الشجر، أو ترمي القمامة، أو تنجب أطفالًا، أو تمارس الجنس، أو تنفق، أو

تدخر، أو تدخن، أو تشرب الخمر، أو تشعل النار، أو تكتب تقريرًا صحفيًّا عن هذه النيران المشتعلة. إذن فما دمت «تشعر» بالتكاليف والمنافع، ستحدد القدر المناسب من كل شيء: سترمي العدد المناسب، حينئذ، من قشر الموز، وسيكون لديك العدد المناسب من الأطفال، أو تختار العدد المناسب لمن تمارس معهن الجنس. ولكن إذا كنت تشعر بالمنافع فقط في حين يشعر شخص آخر بالتكاليف، ففي هذه الحالة سوف تفرط في الإستمتاع بالمنافع، أما إذا حدث العكس وكنت تشعر فقط بالتكاليف في حين يشعر شخص آخر بالمنافع، فلن يكون بوسعك الإستمتاع بالمنافع على نحو كاف.

عندما تتفق مع زملائك على اقتسام فاتورة طعام العشاء فإن قيامك بطلب طبق الحلوى عندئذ يشبه كثيرًا رمي القمامة؛ حيث تحصل أنت على المنافع ويُجبر آخرون على دفع النفقات. إذا كان طبق حلوى الشيكولاته يبلغ سعره عشرة دولارات ولكنه في رأيك لا يساوي أكثر من أربعة دولارات، فما كان يجب عليك إذن أن تطلبه، وفي حقيقة الأمر فإنك لن تطلبه إذا كنت ستدفع وحدك قيمة فاتورة العشاء. أما حينما تتقاسم الفاتورة مع زملائك فإن طبق حلوى الشيكولاته سيبدو لك صفقة رابحة؛ حيث ستطلب الطبق وتدفع المجموعة عشرة دولارات لتشتري لك حلوى تساوي قيمتها عندك أربعة دولارات، وستخسر المجموعة ككل — بما في ذلك أنت — ستة دولارات، وهو الأمر الذي أطلق عليه العاقبة الوخيمة.

تتسبب الآثار غير المباشرة Spillovers في عواقب وخيمة، وأعتقد أن هذا الكم الكبير من العواقب واضح على الأقل من الناحية النظرية، ولكن اكتشاف ما يمكن اعتباره تأثيرًا غير مباشر هو أمر يتطلب مهارات خاصة: خذ على سبيل المثال مشكلة الدخان المستعمل في المطاعم، فهو يطلق عليه دخان مستعمل لأنه يتسرب من طاولة إلى طاولة أخرى (أو من الطاولة إلى المطبخ)، ولكن ذلك لا يجعله ذا تأثير غير مباشر بمعنى الكلمة، فلا يعتبر هذا الدخان ذا تأثيرًا غير مباشر إلا إذا تجاهله صانع القرار. وفي حقيقة الأمر لا يوجد تأثير غير مباشر في هذه الحالة لأن مالك المطعم (وهو من

سمح بالتدخين من الأساس) من المستبعد أن يتجاهل شيئًا ما يمكن أن يلحق الضرر بزبائنه.

سيثير هذا المالكُ بالطبع إستياء بعض الزبائن بغض النظر عمّا يفعله. فإذا تبنى سياسة السماح بالتدخين، سيثير عندئذ إستياء الزبائن والموظفين غير المدخنين؛ أما إذا تبنى سياسة منع التدخين، سيثير عندئذ إستياء الزبائن المدخنين. ومع ذلك فإن المصلحة المالية للمالك تقتضي خفض قدر الاستياء إلى أدنى حد. ولهذا فإذا كانت منافع قرار حظر التدخين تفوق تكلفته سيصدر المالك قرارًا بحظر التدخين، أما إذا كان العكس هو الصحيح فسنجده يصدر قرارًا بالسماح بالتدخين. وفي الحقيقة فإن المالك يتخذ قراراته استنادًا إلى سبب بسيط وهو: أن كل تكلفة وكل منفعة تؤثر تأثيرًا مباشرًا على موارده المالية؛ لأنها ستؤثر على رغبة الزبائن في إنفاق المال داخل مطعمه. والمالك في هذا السياق لديه جميع الحوافز المناسبة ولهذا فهو يتخذ القرارات الصحيحة. ومن أجل ذلك يتفق معظم خبراء الاقتصاد على أن انتقاد تصرف مالك المطعم — بالموافقة مثلًا على تشريع يطغى على اختياراته — لن يكون فكرة راجحة.

دعونا إذن نطلق عليه «مبدأ القناة المائية المشتركة»: يمكنك إن شئت أن تلوث حمام سباحتك فهذا شأنك وحدك، ولكن إذا صبت مخلفات الصرف الصحي لحمام سباحتك في القناة المائية التي تخصنا جميعًا فيجب عليك أن تدفع غرامة كتعويض عن الأضرار التي تسببت فيها. والعكس صحيح، فإذا تطوعت وقمت بتنظيف القناة المائية فيجب أن تكافَأ على ذلك، وإلا فسوف ينتهي بنا الأمر إلى أن نعاني زيادة هائلة في حجم التلوث ونقصًا كبيرًا في عدد المتطوعين.

مبدأ واضح وبسيط، أليس كذلك؟ ولكن النتائج يمكن أن تكون مذهلة.

الفصل الأول

محاربة الإيدز بالعلاقات الجنسية

يُعدّ مرض الإيدز حقًّا بمنزلة القصاص المروع للطبيعة على تسامحنا مع السلوك الجنسي غير المعتدل وغير المسئول على المستوى الاجتماعي، فالوباء هو ثمن مواقفنا الداعية إلى الزواج بزوجة واحدة وإلى العفة، وغير ذلك من صور التحفظ الجنسي المتطرف.

ربما تكون قد قرأت في كتاب آخر عن خطيئة الزنا، دعني أحدثك في هذا الكتاب عن خطيئة ضبط النفس.

سأسوق لك مثالًا الآن وهو «مارتن» ذلك الشاب الجذاب والمتعقل بوجه عام في سلوكياته الذي يمتلك تاريخًا جنسيًّا محدودًا. كان مارتن يغازل «جوان» زميلته في العمل مغازلة رقيقة، وأخيرًا اقترب موعد الحفل الذي ستقيمه الشركة، بدأ مارتن وجوان كل على حدة يستمتع خلسة بالتفكير في احتمال عودتهما بعد انتهاء الحفل معًا للمنزل، ولكن لسوء الحظ فإن القدر تدخل في الأمر عن طريق نوابه في مراكز مكافحة الأمراض. تصادف في صباح يوم الحفل أن شاهد مارتن إعلانًا — من تلك الإعلانات التي ترعاها مراكز مكافحة الأمراض — في مترو الأنفاق يصف فضائل العفة، فقام مارتن محاولًا تطهير نفسه مما فكر في أن يفعله مع جوان باتخاذ قرار بمعاقبة نفسه بالبقاء في المنزل وعدم الذهاب للحفل. تعلقت جوان في ظل غياب مارتن بالشاب «ماكسويل» وهو شاب يماثل مارتن في جاذبيته، وإن كان يقل عنه بقدر هائل في مسألة التعقل في السلوكيات، وهكذا أصيبت جوان بمرض الإيدز.

حينما ينسحب مارتن المتحفظ من مباراة العشق هذه، فإنه يمهد الطريق لماكسويل المتهور لكي يفترس جوان تعيسة الحظ. وإذا كانت إعلانات مترو الأنفاق هذه تؤثر تأثيرًا فعالًا على مارتن يفوق تأثيرها على ماكسويل، فإنها بذلك تكون قد شكلت خطرًا على حياة جوان. يحدث هذا الأمر لا سيما حينما تحل هذه الإعلانات محل إعلانات كيلفن كلاين (بحسناواتها اللائي يظهرن فيها) التي ربما كانت ستضع مارتن في حالة مزاجية لإفادة المجتمع.

إذا قام أمثال مارتن في العالم أجمع بالتحرر قليلًا من تحفظهم الجنسي فإننا يمكن أن نبطئ انتشار مرض الإيدز، وبالطبع فإننا لا نريد أن يضايقنا هذا الأمر كثيرًا. فإذا تحرر مارتن تحررًا مفرطًا فسيكون على نفس قدر خطورة ماكسويل، ولكن حينما يزيد المتحفظون جنسيًّا من نشاطهم الجنسي بمعدلات معتدلة، فإنهم يقدمون إلينا كثيرًا من الخير. ويرى مايكل كريمر Michael Kremer الأستاذ بجامعة هارفارد أنه يمكن إبطاء معدل انتشار مرض الإيدز في إنجلترا إذا قام كل شخص لديه شركاء جنس أقل من ٢,٢٥ شريك في العام بممارسة الجنس مع عدد من الشركاء الإضافيين على نحو أكثر تكرارًا، وينطبق هذا الأمر على ثلاثة أرباع البريطانيين من ذوي الميول الجنسية الطبيعية الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ عامًا إلى ٤٥ عامًا.

يُسدي الرجل المتحفظ مثل مارتن معروفًا للعالم بزيادة عدد المرات التي يزور فيها الحانات لشرب الخمر والتقاط شريكة جنس. و يمكن أن يُسدي للعالم في الحقيقة معروفين وليس معروفًا واحدًا، أولهما — مثلما أوضحت من قبل — هو تحسين فرص كل شخص بالحانة يبحث عن شريكة آمنة، أما المعروف الآخر فهو معروف مخيف، وإن كان في غاية الأهمية أيضًا، فحينما يختار شريكة جنس جديدة الليلة فإنه من المحتمل أن يلتقط العدوى أيضًا. وهو أمر عظيم إن حدث! لأنه لو التقط العدوى سوف يعود لمنزله ويتوارى عن أنظار الجميع ثم في النهاية يموت ويموت الفيروس الذي يحمله معه.

إذا كان يجب على شخص ما أن يصاب بالإيدز الليلة، فأنا أريد أن يكون مارتن هو هذا الشخص، ولا يكون ذلك الداعر بت، الذي من المحتمل أن ينقل العدوى لأكثر من عشرين شخصًا قبل أن يلقى نحبه.

على وجه العموم سأسعد برؤية الرجال من أمثال مارتن في الحانات. فحينما يصطحب ذلك الرجل امرأة «غير مصابة» بالإيدز لمنزله، فإنه يبعدها بعيدًا عن علاقة يمكن أن تفتك بها، أما حينما يصطحب لمنزله «امرأة مصابة»، فإنه يبعد هذه المرأة عن نقل الفيروس إلى شخص آخر يمكن أن ينقل المرض على نحو أكثر وأسرع، ومهما كان ما سيحدث، فأنا أتمنى له حظًّا سعيدًا الليلة.

لا يصلح هذا الأمر مع الأسف لكي يكون عبارة من عبارات الغزل مثل تلك التي يقولها رجل لفتاة يراها لأول مرة ويرغب في مطارحتها الفراش، فمن غير المحتمل أن تكون العبارة الآتية واحدة منها: «يجب أن تمارس الجنس معي حتى أنقل إليك الفيروس وتموت ويموت الفيروس معك»، فمثل هذا الأمر سيكون مثل قول: «يجب أن تبيع جهاز نفخ أوراق الشجر حتى يظل المرج الأخضر أمام منازل جيرانك نظيفًا» أو «يجب أن تظل جالسًا في مدرجات ملعب الكرة حتى يتسنى للجميع أن يرى بوضوح.» وباختصار فإن ما أقصده هو أن ما يصلح للجماعة قد يضر بالفرد، ولهذا السبب تحدث العواقب الوخيمة.

إذا كانت العلاقات المتعددة منقذة للحياة، فإن الزواج بزوجة واحدة يمكن أن يقود المرء إلى الهلاك. تخيل بلدًا ما تتزوج فيه كل واحدة من النساء زوجًا واحدًا، ويريد كل رجل في هذه البلد امرأتين يمارس معهن الجنس كل عام. بعض العاهرات — في ظل هذه الظروف — سينتهي بهن الأمر إلى تقديم خدماتهن إلى كل الرجال، ومن الطبيعي حينئذ أنه لن يمر وقت طويل حتى تصاب العاهرات بالعدوى وينقلن المرض إلى شركائهن الرجال الذين سينقلونه بدورهم إلى زوجاتهم بعد ذلك. أما إذا رغبت كل امرأة متزوجة بزوج واحد من هؤلاء السيدات في ممارسة الجنس مع رجل آخر غير زوجها

ففي هذه الحالة سينقرض سوق الدعارة، وربما ينقرض الفيروس هو الآخر في ظل عدم قدرته على الانتشار بالسرعة الكافية للحفاظ على استمرار دورة حياته.

تقدم هذه القصة الرمزية للسيدات المتزوجات بزوج واحد لكل واحدة منهن مغزًى أعمق من قصة مارتن وجوان، لأنها تظهر أنه حتى على مستوى المجتمع الكبير فإن زيادة التحرر الأخلاقي يمكن أن تؤخر انتشار الوباء. هل يصح هذا الاستنتاج أيضًا في العالم الواقعي؟ الإجابة على هذا السؤال نجدها في بحث الأستاذ كريمر، الذي استخدم فيه افتراضات واقعية لكيفية اختيار الناس لشركائهم في الجنس، والذي أظهر أيضًا نفس الاستنتاج السابق. وعلى هذا فحينما يمر جارك المحتشم نسبيًّا بلحظة نادرة من لحظات التحرر الجنسي، فإنه في الواقع لا يفعل سوى القيام بدوره في محاربة هذه الآفة المميتة.

يُعَدّ ما سبق سببًا وجيهًا لحث مارتن على ممارسة الجنس مع جوان، وهناك سبب آخر وهو أنهما غالبًا سيستمتعان به.

لا ينبغي على الإطلاق أن تؤخذ مسألة الاستمتاع بعدم الاهتمام؛ فإن خفض معدل العدوى بفيروس الإيدز، على أية حال، ليس هو السبب الوحيد الذي يستحق السعي لتحقيقه، فلو كان الأمر كذلك، لكنا قد حرّمنا الجنس تحريمًا كليًّا. ولكن ما نريده حقًّا هو خفض عدد مرات الإصابة بالإيدز إلى أدنى حد مهما كان عدد اللقاءات الجنسية. وهذا الغرض شأنه شأن زيادة عدد اللقاءات الجنسية (بالتراضي)، والوصول به إلى أقصى حد يفتح الباب أمام أي عدد من الإصابات بالإيدز. وعلى هذا فإذا فشل مارتن في منع ماكسويل من تحقيق نصر، فإنه على الأقل يستطيع أن يمنح السعادة إلى شخص ما.

إذا كانت مسألة النجاح في الحد من انتشار مرض الإيدز هي المسألة التي تسيطر على تفكيرك، فمن ثم يجب عليك أن تشجع مارتن على أن يمارس

قدرًا أكبر من الجنس.[١] ولكن إذا كنت شخصًا ماديًّا تهدف إلى تعظيم الفارق بين منافع الجنس وتكاليف مرض الإيدز، فمن ثم يمكنك أن تشجع مارتن على ممارسة المزيد والمزيد من الجنس.

وبالإضافة إلى ذلك، فمن الأمور الواضحة وضوح الشمس لعالم الاقتصاد أن سبب ميل من لديهم ماضٍ جنسي محدود إلى تقديم قدر من الجنس أقل بكثير مما ينبغي في وقتنا الحاضر هو أن : خدمات هؤلاء الناس تُقَدَّر بثمن بخس. إذا كان في استطاعة المتحفظين جنسيًّا أن يعلنوا بوسيلة فعالة عن تاريخهم الجنسي فإن المطالبين بزيادة الوعي بمرض الإيدز سوف يتنافسون في منحهم اهتمامًا هائلًا. ولكن هذا لا يحدث، لأن من الصعوبة بمكان تمييز المتحفظين جنسيًّا. وفي الحقيقة فإن هؤلاء المتحفظين يُكافَئون مكافأة غير كافية على تحررهم من معاييرهم الأخلاقية الصارمة، ومن أجل ذلك فهم يتحررون من معاييرهم الأخلاقية الصارمة تحررًا غير كافٍ.

عندما تتخذ شريكة جنس جديدة، فإنك تتحمل بعض التكاليف وتجني بعض المنافع، وهذا شأنك وحدك. تفرض بعلاقتك الجديدة أيضًا تكاليف ومنافع على الآخرين، وهذه المنافع وهذه التكاليف هي شأن الجميع وليس شأنك وحدك. إذا كان لديك تاريخ متهور من التحرر الأخلاقي، فهذه هي التكلفة. يحاول الجميع صيد شركاء لهم في تلك القناة المائية المشتركة الكبيرة، وأنت قد لوثت هذه القناة بمجرد دخولك فيها.

ولكن إذا كنت دائمًا متحفظًا وتحرص على انتقاء شريكاتك بعناية، فمن المحتمل أنك سوف تزيد من معدل الجودة في ذلك الجزء الخاص بشريكتك في القناة المائية. تستطيع أن تجعل في هذه الحالة القناة المائية أكثر نقاء بمجرد قفزك بداخلها. كل من يذهب حينئذ لصيد شريكة جنس الليلة سيكون لديه — وبفضلك أنت — فرصةٌ أفضل لصيد شريكة آمنة.

---

[١] وفي حقيقة الأمر فإذا كنت من المتشبثين بفكرة بعينها تهدف إلى الحد من انتشار مرض الإيدز، ويمكن أن تتحكم في سلوك الجميع، فمن ثم — كما قلت من قبل — يجب عليك أن تحرم الجنس تحريمًا كليًّا. ولكن إذا كنت من المتشبثين بفكرة بعينها تهدف إلى تقليل انتشار مرض الإيدز ويمكنك أن تتحكم في سلوك مارتن فحسب في الوقت الذي تترك فيه ماكسويل كما هو، فمن ثم يجب عليك تشجيع مارتن أن يمارس المزيد والمزيد من الجنس.

تتشابه القناة المائية للشركاء مع أية قناة مائية أخرى في وجود عدد كبير للغاية من الملوثين، وعدد أقل من المتطوعين لتنظيف هذه القناة. ويرجع السبب في عدم بذل أصحاب المصانع ما يكفي من الجهد من أجل حماية البيئة إلى أنهم يكافَئون مكافأة بخسة على حماية البيئة، أو لأنهم لا يعاقبون على نحو كافٍ على إهمالها؛ فأصحاب المصانع يحصلون على بعض المكافآت (فحتى هم أيضًا يرغبون في الماء والهواء النظيف)، ولكن معظم المنافع يحصل عليها أناس غرباء تمامًا. وبالمثل، فإن السبب الذي يدعو مارتن إلى عدم بذل ما يكفي من الجهد لمحاربة آفة الإيدز المميتة (بممارسة الجنس مع جوان)، هو أنه في حين سيحصل هو بالتأكيد على بعض المنافع (مثل المتعة الجنسية)، فإن الكثير من المنافع سيحصل عليها شركاء جوان في المستقبل وشركاء هؤلاء الشركاء في المستقبل.

الوجه الآخر من التشابه هو أن عفة مارتن ما هي إلا صورة من صور التلوث، فالعفة تلوث البيئة الجنسية عن طريق خفض عدد الشركاء الآمنين نسبيًّا في القناة المائية للتواعد الجنسي. وكذلك يلوث أصحاب المصانع البيئة تلويثًا كبيرًا لأنهم لا يُجبرون على تنفس ذلك القدر الهائل من التلوث الذي تسببوا به، وأما مارتن فهو يبقي كثيرًا في منزله لأنه لا يتحمل سوى قدر ضئيل من العواقب.

إن مقارنة التلوث هي مسألة قوية للغاية لدرجة أنها تفرض المغزى تقريبًا لأية قصة يمكن أن تحكيها. ينبغي — وقبل استنتاج أن ممارسة مارتن الجنس مع جوان تسهم في «إبطاء انتشار الوباء» — أن تفترض بعض الافتراضات بشأن ما سيفعله كل من جوان وماكسويل، وكل شركائهم المحتملين إذا قرر مارتن البقاء في المنزل، ولكن في حالة إستنتاج أن ممارسة مارتن الجنس مع جوان «تجعل العالم مكانًا أفضل» — حيث تعني كلمة «أفضل» الأخذ بعين الاعتبار كلًّا من تكاليف المرض ومنافع الجنس — فإننا لن نكون في حاجة لأي من هذه الافتراضات. يوجد مبدأ عام هو أنه حينما تكون السلع (مثل خدمات مارتن الجنسية) مقدرة بثمن بخس، فإن المعروض من هذه السلع يكون على نحو غير كافٍ.

وهاهو ما نعرفه:

عندما يقوم المتحفظون جنسيًّا بالتحرر من معاييرهم الأخلاقية الصارمة، فإن المنافع تتدفق على جيرانهم على نحو غير مباشر. يعد هذا وحده كافيًا لأن يخبرنا أن العالم يمكن أن يكون مكانًا أفضل إذا كان باستطاعتنا أن نجعل هؤلاء الناس يتحررون بقدر قليل من معاييرهم الأخلاقية الصارمة.

ومع ذلك، يوجد أكثر من طريقة لكي يصبح العالم مكانًا أفضل، فربما يتباطأ انتشار الوباء و ربما ينعم الناس بمزيد من الجنس، وربما تتسارع وتيرة انتشار الوباء، ولكن في المقابل سيتمتع الناس بقدر أكبر بكثير من الجنس.

تخبرنا النظرية البحتة — المتنكرة في رداء مبدأ القناة المائية المشتركة — أن أحد هذين الأمرين الرائعين، على الأقل، يجب أن يحدث. يشير بحث الأستاذ كريمر أن كلا الأمرين الرائعين سوف يحدثان، فسوف ننعم حينئذ بقدر أكبر من الجنس وبنصيب أقل من المرض. إذن فإذا كان كل ما تود أن تفعله هو إبطاء معدل انتشار الوباء، فيؤكد بحث الأستاذ كريمر أن ممارسة المزيد من الجنس هو أمر رائع. أما إذا كنت تود تعظيم المنافع لتكون أكبر من التكاليف، فيؤكد البحث أيضًا أن ممارسة المزيد والمزيد من الجنس هو أيضًا أمر لا يقل روعة عن سابقه.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف نشجع مارتن (والآخرين من أمثاله) على ممارسة قدر أكبر من الجنس؟

أتمنى أن يستطيع هذا الكتاب أن يدفعه في الاتجاه الصحيح، ولكن للأسف، فليس هناك أي سبب يدعوه لفعل هذا، حتى ولو قرأ الكتاب وفهمه بأكمله. (ومع ذلك فلا يجب أن تدع الجملة السابقة تمنعك من شراء نسخة من الكتاب لتهديها له!) اختارَ مارتن بالفعل مستوى النشاط الجنسي الملائم له، ومن غير المحتمل أن يعدل هذا المستوى لمجرد أن يعرف أن مجموعة من الغرباء — وبالتحديد، شركاء جوان في المستقبل وشركاء من يشاركون شركاء جوان في المستقبل — سوف يشكرونه لقيامه بهذا الفعل.

وفي حقيقة الأمر فإن مارتن — لكونه بشرًا — يميل إلى التركيز على ما يطيب له، وليس على ما يطيب للمجتمع الذي يعيش فيه. ويمكنك أن تجعل أحد الملوثين من ملاك المصانع يفهم ويدرك أنه يؤذي جيرانه، ولكن هذا يختلف عن إقناعه بأن يتوقف عما يفعله.

نحن نحتاج إذن إلى شيء أكثر فعالية من مجرد التعليم. أعتقد أن الليبراليين — استنتاجًا من مواقفهم المعتادة تجاه المسائل البيئية — يمكن أن يهاجموا مشكلة الإفراط في الاعتدال الجنسي بتشريع قسري، ولكنني — كأحد المخلصين لنظام حرية الأسعار بأن تتحدد الأسعار وفقًا للعرض والطلب — أفضل أن أشجع السلوك الطيب بواسطة نظام دعم مصمم على نحو جيد.

وبعبارة أخرى، نستطيع أن ندفع مبلغًا ماليًّا للناس من أجل ممارسة المزيد من الجنس، ولكن هذا ليس منهجًا مثاليًّا لأننا لا نريد أن يمارس الجميع مزيدًا من الجنس مع عدد أكبر من الشركاء، فماكسويل على سبيل المثال يتمتع بالجنس بما يكفي. تكمن المشكلة في دعم صحوة مارتن الجنسية بدون دعم الإفراط الجنسي لماكسويل في نفس الوقت.

يمكن أن ندفع مبلغًا ماليًّا إلى الناس لممارسة الجنس شريطة أن يكونوا من عديمي الخبرة نسبيًّا، ولكن لسوء الحظ فإن هذا لن ينجح أيضًا ما دام بوسع ماكسويل الكذب بشأن ماضيه والحفاظ على وجهه خاليًا من أي مشاعر لوقت كاف حتى يتمكن من الحصول على المكافأة.

إن ما نحتاجه حقًّا هو اختراع مكافأة تكون ثمينة لمارتن وليس لماكسويل، ولتكن على سبيل المثال بطاقة اشتراك في المكتبة حيث أعتقد أن ماكسويل — وسط حياته الاجتماعية الحافلة — لن يعبأ بقضاء كثير من الوقت في المكتبة.

يعتبر استعمال بطاقة المكتبة تحولًا نحو الأفضل بكل تأكيد، ولكن هذه المكافأة لا يزال ينقصها أمر ما؛ فعندما يصل مارتن إلى مكتب الإعارة أنيقًا وأشعث الشعر على نحو ملائم لشروط منحه المكافأة، فكيف يمكن لأمين المكتبة حينئذ أن يعرف ما إذا كان مارتن قد أوفى بالتزاماته الجنسية أم أنه يقدم عرضًا تمثيليًّا من الطراز الرفيع؟

فلنقم بمحاولة جديدة إذن: نحتاج لحل هذه المشكلة إلى مكافأة مختلفة، وهي مكافأة لا قيمة لها لمارتن إلا إذا مارس الجنس بالفعل، وكما قلت من قبل، فإنها يجب أن تكون مكافأة يقدرها مارتن تقديرًا يفوق تقدير ماكسويل لها.

توجد في رأيي مكافأة واحدة فقط يمكنها أن تناسب كلا المعيارين، وهي: الواقي الذكري المجاني أو المدعوم دعمًا كبيرًا. يجب أن يمارس مارتن الجنس من أجل جني منفعة الواقي الذكري المجاني. يقدر مارتن في الغالب الواقي الذكري المجاني تقديرًا يفوق تقدير ماكسويل، والسبب في ذلك هو أن مارتن شبه متيقن من أنه لم يُصبْ بالمرض بعد، ولهذا فإن الواقي الذكري يمنحه فرصة عظيمة من أجل إنقاذ حياته، أما ماكسويل، فعلى العكس، فهو يعلم أنه ربما يكون قد أصيب بالفيروس بالفعل، ولذا فإن الواقي الذكري عنده في هذه الحالة من غير المحتمل أن يصنع فارقًا، فيمكن أن يكون الواقي الذكري المدعوم هو الطُّعم الذي يغري مارتن للخروج من شرنقته، دون إثارة ماكسويل للقيام في نفس الوقت بنشاط محموم جديد.

يوجد في الحقيقة سبب آخر لدعم الواقي الذكري، وهو أن استخدامه يُكافَأ مكافأة بخسة؛ فعندما تستخدم الواقي الذكري، فأنت تحمي نفسك وتحمي شركاءك في المستقبل (وشركاء شركائك في المستقبل)، ولكنك تُكافَأ على حماية نفسك فقط (بمعدل منخفض من احتمال العدوى). ولا يدرك شركاؤك في المستقبل فائدة استخدامك للواقي الذكري في الماضي، ولهذا فهم لا يكافِئون هذا الأمر كما هو مفترض بالإفراط في الغزل والعشق، ويعني ذلك أنك قد أخفقت في الحصول على جميع المنافع التي تمنحها أنت للآخرين، ونتيجة لذلك فإن استعمال الواقي الذكري يكون على نحو أقل مما يُبتغى.

وبعبارة أخرى: يستخدم الناس عددًا قليلا جدًّا من الواقيات الذكرية، لنفس السبب الذي يدفعهم لممارسة أقل قدر من الجنس. وعندما يمارس مارتن الجنس مع جوان، فإن ذلك يعتبر أمرًا طيبًا لشركاء جوان الجنسيين في المستقبل. أما عندما يستخدم مارتن واقيًا ذكريًّا، فإن ذلك يعتبر أمرًا طيبًا

لشركاء مارتن في المستقبل. وفي كلتا الحالتين لا يحصل الشركاء المستقبليون على فرصة عادلة للتأثير على سلوك مارتن.

كثيرًا ما يقال إن الواقي الذكري المدعوم (أو المجاني) له جانب إيجابي وجانب سلبي: فالجانب الإيجابي هو أنه يحد من مخاطر أي لقاء جنسي، أما الجانب السلبي فهو أنه يشجع على المزيد والمزيد من اللقاءات الجنسية. وفي الحقيقة لا يعتبر ما سبق جانبًا إيجابيًّا وجانبًا سلبيًّا، ولكنه يعتبر جانبين إيجابيين حيث إنه دون دعم لن يستخدم الناس الواقي الذكري بقدر كافٍ، ودون دعم أيضًا لن يحصل الناس — ممن يقدرون قيمة الواقي الذكري تقديرًا كبيرًا — على عدد كافٍ من شركاء الجنس.

العيب الأساسي في مسألة دعم الواقي الذكري هو أنه في حد ذاته ليس سلعة باهظة الثمن بما يكفي لكي نبدأ بها كمكافأة، فيمكنك أن تخفض ثمن الواقي الذكري من دولار إلى الصفر ليكون مجانًا دون التأثير على اختيارات الناس الجنسية.

ومن ثم، يجب أن يكون هدفنا هو جعل ثمن الواقي الذكري أدنى من الصفر، وذلك عن طريق مكافأة الأشخاص الذين يستعملونه. وبعبارة أخرى، يجب علينا أن ندفع مكافأة لاستخدام الواقي الذكري. وأفضل المكافآت الممكنة هي تلك التي تفوق في قيمتها للمتقشف مارتن قيمتها لماكسويل المتحرر أخلاقيًّا. قدم الصحفي أوليفر مورتون — كبير المحررين في مجلة «نيتشر» Nature — اقتراحًا رائعًا بعد أن أخذ كل ما سبق بعين الاعتبار، وهو أن هناك — على الأقل — نسبة من التقشف الجنسي، تحدث نتيجة الخجل إلى جانب عدمِ القدرة على إيجاد شركاء جنس (يعاني المتحررون جنسيًّا معاناة أقل فيما يخص الأمر السابق!) فالحل من ثم ربما يكون في إنشاء هيئة للتواعد الجنسي يجري تمويلها من جانب الحكومة، يكون شعارها هو: احضر لنا واقيًا ذكريًّا مستعملًا، وسوف نرتب لك موعدًا مع شريكة جنس.[٢]

---

[٢] عندما أعربت عن قلقي بشأن سهولة الاختلاق في هذا السياق، أجاب السيد مورتون قائلا: نعم، لدي قلق بشأن مشاكل الاختلاق، ولكن أي شخص يكون على استعداد لتجشم عناء مثل هذا النوع من المشاكل يجب أن يُشَجَّع غالبًا في سوق التواعد الجنسي على أية حال.

يمكن اقتلاع المشكلة من جذورها — واقتلاع مسألة الدعم بأكملها أيضًا — إذا كان من الممكن إيجاد طريقة ما تجعل ماضينا الجنسي مرئيًّا، فهكذا يكون بوسع شركائنا في المستقبل أن يكافِئوا السلوك القويم في الماضي، ومن ثَمَّ يقدمون الحوافز المناسبة. ربما تنجح التكنولوجيا في جعل هذا الحل ممكنًا، فأنا أتخيل أن يكون شكل المواد الإباحية في المستقبل على النحو الآتي: (انزلقت تنّورتها على الأرض واستقرت نظراته على فخذها، في هذا الوقت تَظهر شاشة فيها عبارة تقول: «إن هذا الموقع تمت زيارته ٣١٤ مرة.»)

وكذلك فقد اقترح أحد قرائي في مجلة سليت تقديم خدمة على شبكة الإنترنت يمكن بموجبها تسجيل نتائج اختبارات الإيدز السلبية. يمكنك في هذه الخدمة أن تكتب اسم شريكتك التي تعتزم إقامة علاقة معها وتحصل على نتيجة مثل: «آخر نتيجة اختبار سلبية كانت في ٧/٤/٢٠٠٦.» ومن أجل حماية الخصوصية، فأنت لن تكتب اسمًا وإنما رقم هوية تحصل عليه من شريكتك. ومن أجل تجنب التزوير في أرقام الهوية، فإن الشاشة سوف تُظهر نتيجة الاختبار وبجوارها صورة الشريكة. أعترف بروعة هذه الفكرة ولا أعرف لماذا لم تُنَفَّذ حتى الآن. ولكن حتى يحين وقت تنفيذها، فإن أفضل ما يمكننا فعله هو جعل ثمن الواقي الذكري رخيصًا وكذلك نتخلص من تلك الإعلانات الموجودة في مترو الأنفاق.

الملحق

نشرت نسخة مختصرة من هذا الفصل في مجلة سليت عام ١٩٩٦م، وتلقيتُ بعد النشر المئات من رسائل البريد الإلكتروني. كان هناك عدد كبير من تلك الردود يتسم بالحكمة والمتعة، وساعدني في عرض الموضوع على نحو أفضل مثلما قرأتَه في الصفحات الماضية، ولم تحتوِ رسائل أخرى في المقابل على شيء يذكر سوى سطر أَو سطرين من اللوم والتوبيخ. رددت على هذه الرسائل الأخيرة عادة برسالة قصيرة أقول فيها: «إنني أعتذر، ولكنني لم

أستطع — بعدَ قراءة رسالتك — أن أحدد أي النقاط بالضبط التي توقفتَ عندها عن فهم ما أقول. وإذا استطعتَ أن تكون أكثر دقة في تحديد النقطة التي لم تفهمها، فسوف أبذل قصارى جهدي لتوضيحها.»

تلقيت في عدد جدير بالملاحظة من الحالات ردودًا مقنعة ومبنية على أسس مدروسة بعناية، مهد بعضها الطريق إلى رسائل متبادلة بيني وبين أصحابها تعلمت منها كثيرًا.

وفي نفس الوقت فقد بدا بعض القراء الآخرين وكأنهم عاقدي العزم على عدم فهم ما أتحدث عنه. قام أحد هؤلاء القراء — ملوحًا بأهمية شخصيته كطبيب — بوصف عمودي الصحفي في مجلة سليت بأنه «مؤسف للغاية»، وقد أوضح هذا القارئ سبب هذا الوصف في عدد لاحق من مجلة سليت، حيث قال:

> «إننا في مرحلة من وباء الإيدز، تزايد فيها انتشار المرض تزايدًا خطيرًا بين أصحاب الميول الجنسية الطبيعية. وربما يجد القراء ممن يمارسون الجنس خارج إطار الزواج تبريرات لسلوكهم المفرط في التعرض للمخاطر الجنسية، مع الأسف، يمكن أن يؤدي قضاء علاقة جنسية ناجحة ليوم واحد إلى الفشل وإلى حياة قصيرة الأمد. يمكن أن يدافع محرر مجلة سليت — كتكملة مناسبة — في مقال لاحق عن ... لعبة الروليت الروسية مثلًا بوصفها مقبولة إحصائيًّا ولكنه يحذر من الخطورة الجسيمة لحشو ثلاث بندقيات.»

يُعَدّ مبدأ «الميزة النسبية» comparative advantage أحد أعظم اكتشافات علم الاقتصاد في القرن التاسع عشر، فَوَفْقًا لهذا المبدأ يحقق الناس أفضل نجاحاتهم عندما يركزون على الأشياء التي يتقنون صنعها. ويعد هذا المبدأ في الواقع أكثر عمقًا من ذلك، ولكن هذا التعريف المفرط في الإيجاز يكفي الحاجة للتمهيد لما سأعرضه حالًا. يفسر مبدأ الميزة النسبية السبب وراء عمل البعض كأطباء بشريين، في حين يختلف البعض الآخر عنهم

وينخرطون في مجالات — مثل الاقتصاد — تتطلب على الأقل وجود درجة دنيا من القدرة على الاستنباط على نحو منطقي.

لا يوجد شيء في هذا الفصل — ولا حتى كلمة واحدة قرأتها أنت في هذا الفصل أو في المقال الأصلي المنشور في مجلة سليت — يمكن أن يدفع أي قارئ لسلوك يزيد فيه من قدر تعرضه للمخاطر الجنسية. وبيت القصيد حقًّا هو أن المتعففين نسبيًّا يمارسون قدرًا قليلًا للغاية من الجنس لأن التصرف خلاف ذلك لا يدخل في دائرة اهتمامهم. فإذا كنت تكتفي جنسيًّا بزوجتك وزوجتك تكتفي جنسيًّا بك، فإنك بطبيعة الحال لن تصاب بأي مرض من الأمراض المنقولة جنسيًّا. وإذا أوضحتُ لك أن استمرارك في ممارسة الجنس مع زوجتك فقط من المحتمل أن يتسبب في هلاك جيرانك، فأنا لا أتوقع منك أن تسرع للمخاطرة بحياتك من أجلهم.

تخيل معي هذا السيناريو: أنا أكتب مقالة موضحًا أنه عندما تضع الشركات مرشحات على مداخنها، فإنهم يقدمون خدمة إيجابية على المستوى الاجتماعي. ومع ذلك يحد تركيب المرشحات — لسوء الحظ — من أرباح الشركات، ولهذا تركب الشركات عددًا من المرشحات يقل عمّا نريده، لذا فربما يجب أن ننظر بعين الاعتبار إلى دعم هذه المرشحات.

يأتي طبيبنا البشري ليجادل بأن: (أ) المرشحات تقلل الأرباح ومن ثَمَّ فهي سيئة. (ب) المقال الذي نشرته «مؤسف للغاية»؛ لأن «القراء من مالكي المصانع ربما يزيدون من جهودهم لمكافحة التلوث.» (ج) إذا كنا سوف نجادل لصالح معدات مكافحة التلوث، فنحن ربما ننشر أيضًا مقالًا ننصح فيه الشركات بتحويل جميع ممتلكاتها إلى زوارق التجديف ثم يغرقونها بعد ذلك.

تعتبر النقطتان (أ) و(ب) خاطئتين خطأً صريحًا لا شك فيه. ومع ذلك فإذا كان هؤلاء القراء السطحيون على مثل هذه الدرجة الهائلة من الحمق، أو أنهم مُؤْثِرون إيثارًا على نحو استثنائي. وقاموا بزيادة جهودهم لمقاومة التلوث بسبب مقال صحفي لا يعرض أدنى تبريرات لهذا الفعل — فيمكن أن نمتن جميعًا لهذه الحماقة وسنرى المقال الصحفي برؤية مختلفة تمامًا عن

الرؤية الأولى التي اعتبرناه فيها «مؤسفا للغاية».[٣] لا تعتبر النقطة (ج) نتيجة منطقية تستحق تعليقات الأطباء النابهين بشأن لعبة الروليت الروسية، فمثل هذه الاستراتيجية لا تمنح أي منافع للجيران ولذا فهي تعتبر عديمة الصلة تمامًا بالموضوع.

منحت كثيرًا من المساحة للقارئ الطبيب لأن تعليقاته قد رددها قراء آخرون، الذين عبروا عن قلقهم بأن القراء السذج سيسيئون فهم هذه الحجة تمامًا، بحيث يصبحون جميعًا من أمثال ماكسويل المتحرر أخلاقيًّا، ويفنون بذلك الجنس البشري تمامًا، وقد حثني القليل من القراء على نشر تصحيح للمقال، بسبب هذا الأمر على وجه التحديد. وبمعنى آخر، فقد جادلوا بأن الأفكار يجب أن تُمنع؛ لأن شخصًا ما يمكن أن يُسيء فهمها، وفي الحقيقة فإن هذا الموقف يعتبر موقفًا ذا تاريخ طويل وقذر، وأنا أفضل أن أنأى بنفسي عن أن أكون طرفًا فيه.

وفيما يأتي بعض الأسئلة التي طُرحت كثيرًا بما يكفي لجعلها تستحق تسجيل الإجابة عليها:

> السؤال الأول: قلتَ: إن زيادة التحرر الجنسي قليلًا سيؤدي إلى تراجع معدل الإصابة بمرض الإيدز. إذا كان هذا صحيحًا، أفلا يستتبع ذلك أن الزيادة الهائلة في التحرر الأخلاقي يمكن أن تقضي على المرض كليًّا؟ ألا تتصف هذه النتيجة بالسخف الواضح؟
>
> الإجابة: حقًّا، تتصف هذه النتيجة بالسخف الواضح، ولكنها ليست النتيجة الصحيحة؛ فالتغيرات الكبيرة والصغيرة ليست لها دائمًا نفس النتائج؛ فعلى سبيل المثال فأنا أميل إلى الاعتقاد بأنني إذا أكلت قدرًا أقل من الطعام فسوف يمتد عمري لمدة أطول،

[٣] حتى أكون واضحًا تمامًا بشأن المقارنة: يماثل تركيب المرشحات التحول نحو مزيد من التحرر الأخلاقي، فهو يلحق بك الأذى ويساعد جيرانك. ومسألة أن هناك شيئًا ما يلحق بك الأذى لا يجعل هذا الشيء سيئًا، كما أن مسألة أن أمرًا ما يساعد جيرانك لا تجعلك تهب لأن تفعل هذا الأمر. ومن ناحية أخرى، إذا اختلط الأمر بهذه السهولة على القليل من قرائي (مثل الأطباء البشريين) بحيث يهبون ويمارسون الكثير من الجنس بسبب هذه الحجة، فإننا جميعًا ينبغي أن نشعر بالإمتنان لموقفهم هذا.

ولكنني لا أعتقد أبدًا بأنني إذا لم أتناول الطعام قط فسوف أعيش إلى الأبد.

السؤال الثاني: قال أحد القراء: «إن ملء ملعقة من التحرر الأخلاقي سوف يبطئ انتشار المرض فقط، ولكن ضبط النفس يمكن أن يمنع المرض.» وفي ضوء ذلك، أليس من الاستهتار أن نطري بإسراف على مزايا التحرر الأخلاقي بدون التأكيد أيضًا على مزايا ضبط النفس؟

الإجابة: يتشابه قول هذا القارئ مع قول القائل بأن استخدام إشارات المرور من شأنه أن يعمل فقط على تقليل عدد حوادث السيارات، في حين أن حظر استخدام السيارات من الأساس يعمل على منع حدوث هذه الحوادث، وبناء على ذلك سيكون الثناء على مزايا إشارات المرور ضربًا من ضروب الطيش.

والخطأ في هذا المنطق هو أن حظر السيارات أمر غير واقعي وغير مرغوب، شأنه شأن حظر ممارسة الجنس خارج إطار علاقة طويلة المدى، بالإضافة إلى أنه لن يحدث من الأساس، وحتى إذا حدث فمع ما سيصاحب ذلك من انخفاض معدل الوفيات، لن نكون في الغالب أكثر سعادة.

على أية حال، يعلم الجميع تمام العلم أن المجتمعات التي تلتزم بنظام الزوجة الواحدة والزوج الواحد التزاما تامًّا لن يكون لديها مشكلة الإيدز، ولكنني أفضل الكتابة عن أمورٍ تتصف بأنها حقيقية وفي ذات الوقت غير متوقعة. وأنا ككاتب آمل في وجود قراء يهتمون بتعلم شيء ما.

السؤال الثالث: حسنًا، توجد منافع لزيادة معدل التحرر الأخلاقي، ولكن يوجد كذلك منافع لزيادة معدل العفة. أليس من غير المنطقي أن ندعم واحدة ولا ندعم الأخرى؟

الإجابة: لا، لأن هناك فرقًا حاسمًا بين هذين النوعين من المنافع. ففي حين تذهب منافع تحررك الأخلاقي إلى الآخرين، تذهب منافع

عفتك إليك وحدك. وهكذا يكون لديك بالفعل ما يكفي من الحوافز في صالح العفة.

السؤال الرابع: ألم تغفل بعض الأمور التي قد تكون مهمة؟

الإجابة: بالطبع نعم، فمن ناحية، فإن التغير في السلوك البشري يمكن أن يؤدي إلى طفرة في التطور من جانب الفيروس. يساورني الشك في مدى أهمية أخذ هذه المسألة بعين الاعتبار في هذا السياق مع أنها بالتأكيد في غاية الأهمية في سياقات أخرى، ولكن ربما أكون مخطئًا. ومن ناحية أخرى فأحد القراء — على الأقل — سوف يعارضني معارضة شديدة قائلًا: إن التوقف عند زيادة «طفيفة» في التحرر الأخلاقي هي ضرب من ضروب المستحيل؛ لأن ذلك يقود إلى تغيرات ثقافية تؤدي بدورها إلى زيادة «كبيرة» في هذا التحرر. أشك في صحة ما يقوله هذا القارئ بيد أنني لا أستطيع أن أبرهن على خطئه.

الفصل الثاني

كن منتجًا وتناسل

خطط تيد باكستر — الشخصية الخيالية التي لعبت دور المذيع في البرنامج التلفزيوني الكوميدي القديم «ماري تيلور مور شو» Mary Tyler Moore Show — أن ينجب ستة أطفال على أمل أن يكبر أحدهم ويحل مشكلة العالم السكانية. كان تيد باكستر مذيعًا متواضعًا، ولكنه كان خبيرًا اقتصاديًّا بالسليقة فقد كان فهمه للعلاقات بين الأشياء يخلو من الأخطاء: فالبشر يحلون المشاكل، وحينما يكون هناك عدد أكبر من البشر فإن عددًا أكبر من المشاكل سيُحَلّ.[٤]

والسبب وراء كونك أيسر حالًا من أجدادك — والسبب في أن أحفادك سيكونون أيسر حالًا منك — هو أن كل جيل يتمتع على حساب إبداع الأجيال التي تسبقه؛ لقد كان لدى أبويك منذ جيل مضى الحرية في الاختيار بين ثلاثة قنوات تليفزيونية كانت تُعرض في الغالب بالأبيض والأسود وتقدم برامج لم تكن حينذاك هناك وسيلة لتسجيلها من أجل التمتع بمشاهدتها في وقت لاحق، وكذلك فقد استخدموا آلات كاتبة كهربائية قَدَّمَ آخر طراز منها إبداعًا مدهشًا وهو مفتاح «الإلغاء» الذي كان يمكنك من إلغاء آخر حرف طبعته، أما إذا أردت إلغاء الحرف الذي يسبق آخر حرف فمع الأسف لن تتمكن من ذلك.

يدفعنا الكثير من وسائل الرفاهية التي نستمتع بها اليوم إلى أن ندين بالفضل لمن اخترعوا تليفزيون الكيبل .cable TV وجهاز مسجل الفيديو

[٤] أجزاء من هذا الفصل نشرت من قبل في كتابي السابق «اللعب النظيف.»

والحاسب الشخصي وندين بالفضل أيضًا إلى ضربة الحظ السعيدة التي جنبت آباءهم من الانضمام إلى منظمة «انعدام النمو السكاني» Zero Population Growth — التي أسسها بول إيرليش عام ١٩٦٨ عقب نشر كتابه الشهير «القنبلة السكانية» — وجعلتهم ينجبون هؤلاء المخترعين.

إن التقدم التكنولوجي هو محرك الرفاهية في حين أن البشر هم محرك التقدم التكنولوجي. فالأفكار مصدرها البشر؛ إذن فكلما كان هناك عدد أكبر من البشر كان هناك عدد أكبر من الأفكار، وكلما زاد عدد الأفكار زادت رفاهيتنا.

جمع مايكل كريمر أستاذ الاقتصاد بجامعة هارفارد بيانات غطت مدة مليون سنة من التاريخ البشري ومن عصور ما قبل التاريخ، من أجل دعم نظرية أن النمو السكاني يقود إلى التقدم التكنولوجي وأن التقدم التكنولوجي يقود إلى النمو الاقتصادي وأن النمو الاقتصادي — ولاستكمال الدائرة الفاضلة التي يكون لكل حدث فيها تأثير إيجابي على الحدث الذي يليه — يقود إلى النمو السكاني لأن المجتمعات الغنية يمكن أن تعيل أطفالًا أكثر عددًا. قاد هذا البحث الأستاذ كريمر إلى تكرار ما قاله من قبل تيد باكستر وإعلان موافقته على هذا الاستنتاج.

يبني الأستاذ كريمر حجته على افتراض أن تضاعف عدد السكان في العالم يعني تضاعف عدد العباقرة بالسليقة. وهكذا فإن زيادة عدد السكان تسهم في تطوير تكنولوجيا أفضل لنفس السبب الذي تمتلك فيه أكثر المدارس الثانوية طلابًا أفضل فرق كرة القدم مقارنة بمثيلاتها ذوات الطلاب الأقل عددا. وفي الواقع فإن الأمر يمتد إلى ما هو أبعد من هذا؛ فالمُدافِع الموهوب في لعبة كرة القدم هو مجرد مُدافع موهوب، في حين يمكن للمخترع العظيم أن يعلّم «كل إنسان» أن يكون منتجًا على نحو أفضل. وفي حين تنتهي قيمة ما يقدمه المُدافع عندما يتخرج من المدرسة فإن ما يقدمه المخترع للبشرية يعيش للأبد.

يوجد سببان لتفسير أن المكاسب التي يمكن جنيها من الزيادة في عدد السكان يمكن أن تتجاوز حتى التقديرات المتفائلة للأستاذ كريمر:

السبب الأول: هو أن العباقرة يلهم بعضهم بعضًا ولهذا فإن ٢٠٠٠ عبقري ربما يبتكرون أكثر من ضعف عدد الأفكار التي يمكن أن يولدها ١٠٠٠ منهم.[٥]

السبب الثاني: هو أن عدد السكان المتزايد يعني وجود سوقًا كبيرة للاختراعات ومن ثم يكون حافزًا للمخترعين للعمل بجد واجتهاد. من أجل ذلك فإن النمو السكاني لا يعمل فقط على زيادة عدد العباقرة بالسليقة، ولكنه يشجع أيضًا أمثالنا من ذوي المهارات العادية لدفع هذه المهارات إلى حدها الأقصى.

وفي الحقيقة فقد جادل اثنان من خبراء الاقتصاد بالبنك المركزي الأمريكي في ريتشموند في بحث نشر حديثًا في مجلة «أمريكان إيكونمك ريفيو» American Economic Review بأن الثورة الصناعية — وطفرة النمو الهائلة والمستمرة التي فجرتها — اضطرت للانتظار حتى نمت الأسواق العالمية بالقَدر الذي يجعلها تستطيع مكافأة ذلك التحول واسع النطاق بواسطة أصحاب الأعمال.

ظهر الجنس البشري على الأرض منذ مائة ألف سنة مضت، وفي ٩٩٫٨٠٠ سنة من هذه المدة الزمنية عاش البشر في العالم فوق حد الكفاف بقليل (في الولايات المتحدة الحديثة يقع هذا الحد في نطاق الدخل المتراوح بين ٤٠٠ دولار و٦٠٠ دولار في العام). كان الدخل — في بعض الأزمنة وفي بعض المناطق القليلة المحظوظة — يزيد عن حد الكفاف هذا ولكن هذه الزيادة لم تتجاوز ضعف هذا الحد بأي حال من الأحوال. وفي كل الأزمنة وُجدت دائمًا طبقة ضئيلة العدد من الطبقات المتميزة عاشت عيشة أفضل بكثير من عامة المجتمع ولكن بالنظر إلى العدد الضئيل لهذه الطبقات النبيلة نجد أنها من الناحية الرقمية لم تكن ذات أهمية. ويمكن القول بأنه إذا كانت ولادتك في أي زمن قبل أواخر القرن الثامن عشر ففي الغالب كنت ستعيش

[٥] من الناحية الأخرى فإنك يمكن أن تجادل بأن العباقرة يميلون إلى أن يخيف بعضهم بعضًا كأن يقول أحدهم للآخر: لماذا تفني شبابك عاملًا في تطوير الانصهار البارد إذا كان جارك العبقري من المحتمل أن يسبقك ويحصل على براءة الاختراع؟

على دخل أقل من ١٠٠٠ دولار في العام. (تمامًا مثلما عاش آبائك وأجدادك وتمامًا مثلما كان سيعيش أبناؤك وأحفادك من بعدك).

حدث شيءٌ ما في أواخر القرن الثامن عشر — أي منذ ما يقرب من مئتي عام أو عشرة أجيال — حيث بدأت الأحوال المالية للناس تتيسر وما زالت تتيسر وتتيسر، وبدأ دخل الفرد — على الأقل في الغرب — في النمو بمعدلات غير مسبوقة بما يقرب من ٠,٧٥٪ في العام. وحدث نفس الأمر بعد ذلك بعشرين عامًا في مختلف أنحاء العالم. بدأت ظروف الحياة تتحسن عامًا بعد عام في أعقاب آلاف السنين من الركود الاقتصادي، ولم يستغرق الأمر طويلًا حتى بدأ الناس ينظرون إلى هذا التطور على أنه من المسلمات. وهكذا فنحن نتوقع اليوم أن تستمر سياراتنا وحاسباتنا وأدويتنا ونظام ترفيهنا في إبهارنا بما هو جديد. ولم يكن الأمر هكذا قبل الثورة الصناعية؛ فقد كان تحقيق معدل نمو سنوي عند ٠,٧٥٪ ضربًا من ضروب الإعجاز.

ولكن تحسن الحال فيما بعد، وبحلول القرن العشرين ارتفع معدل الدخل الحقيقي للفرد per capita real income — الذي يُعَدَّل وفقا لمعدلات التضخم — إلى ١,٥٪ سنويًّا في المتوسط. فمنذ عام ١٩٦٠م، أي منذ ما يقرب من خمسين عامًا من وقتنا هذا، ارتفع معدل النمو بما يقرب من ٢,٣٪. دعني أوضح لك شيئًا ما عن معني هذه المعدلات من النمو للمواطن الأمريكي البسيط:

إذا كنت مواطنًا أمريكيًّا من الطبقة المتوسطة ويصل دخلك إلى ٥٠,٠٠٠ دولار في العام وتتوقع أنه بعد خمسة وعشرين عامًا من الآن أن يشغل أطفالك نفس الدرجة المتواضعة في السلم الاقتصادي؛ إذن فمع معدل نمو بنسبة ٢,٣٪ سيصل دخلهم المعدل وفقًا للتضخم إلى ٨٩,٠٠٠ دولار في العام. أما أبناؤهم، وبعد خمسة وعشرين عامًا أخرى في السلم الاقتصادي، فسيصل دخلهم المعدل وفقًا للتضخم إلى ١٥٨,٠٠٠ دولار في العام. وإذا ما استمر معدل النمو عند نسبة ٢,٣٪ ففي أقل من أربعمائة عام فإن ذريتك من المتوقع أن يصل دخل الواحد منهم إلى مليون دولار في اليوم الواحد! بالتأكيد

ينخفض هذا الرقم قليلًا عمّا يربحه اليوم البليونير المعروف «بل جيتس» ولكنه على الأقل رقم يقترب من الصواب إلى حد بعيد. وفي هذا الصدد أريد أن أوضح أنني لا أتحدث عن بعض الدولارات المستقبلية التي التهم التضخم قيمتها الحقيقية التهامًا ولكنني أتحدث عما يساوي بالفعل مليون دولار من «دولارات اليوم».

إذا كان من الصعب عليك تصديق أننا نستطيع تحقيق مثل هذا النوع من الثروات فتذكر أن هذه الأرقام هي نوع من «التنبؤ المتحفظ» conservative extrapolation لاتجاه يستمر قرونًا من الزمان. يفترض هذا الاتجاه أن معدل النمو الحالي عند ٢٫٣٪ سيستمر دون تغيير في حين يخالف هذا الافتراض الحقيقة؛ حيث ظل معدل النمو يتزايد منذ بداية انطلاقه من مئتي عام. تذكر أيضًا أن كل قفزة تاريخية يكون من الصعب للغاية تصديق إمكانية حدوثها حتى تصبح حقيقة ملموسة؛ فقد كتب سكستوس يوليوس فرونتينوس Sextus Julius Frontinus المؤلف الروماني في القرن الأول الميلادي: «إن الاختراعات قد وصلت حدها الأقصى منذ وقت طويل مضى وأنا لا أرى أى أمل في رؤية أي تطور في المستقبل.»

تبدو التقلبات المؤقتة لدورة العمل بالمقارنة بهذا السيناريو التاريخي كظاهرة في غاية الضآلة. شهدنا في الولايات المتحدة في الثلاثينيات من القرن العشرين فترة الكساد الكبير The Great Depression حيث عادت معدلات الدخل حينئذ إلى ما كانت عليه قبل عشرين عامًا. واضطر الناس لسنوات قليلة أن يحيوا تلك الحياة التي كان يحياها آباؤهم من قَبْلُ، وشعروا أن تلك الكيفية من الحياة لا تطاق. وفي الواقع فإن التوقعات المبنية على أساس أن الزمن الحاضر من المفترض أن يكون أفضل من الزمن الماضي ليست إلا ظاهرة جديدة في التاريخ. فلم يحلم أي من رجال السياسة في القرن الثامن عشر بأن يسأل السؤال الآتي: هل حالك الآن أفضل مما كنت عليه منذ أربع سنوات مضت؟ وذلك لأنه لم يكن «من المفروض» أن يتغير حال هؤلاء الرجال نحو الأفضل بالمقارنة بما كان عليه قبل أربع سنوات!

يمثل ارتفاع الدخل مجرد جزءٍ من المسألة، فنحن لسنا فقط أيسر حالًا مما كنا من قبل، ولكننا أيضًا نعمل وقتًا أقل، ولدينا منتجات ذات جودة أفضل. تؤكد الأرقام أن متوسط ساعات العمل الأسبوعية منذ مائة عام مضت كان يتجاوز ستين ساعة، أما اليوم فهي أقل من أربعين ساعة، ومنذ مائة عام مضت أيضًا بلغت نسبة عمال المصانع الذين يحصلون على إجازات مدفوعة الأجر ٦٪ فقط أما اليوم فتصل النسبة إلى ٩٠٪. ومنذ مائة عام مضت كان الرجال يلتحقون بسوق العمل وهم في مطلع مرحلة المراهقة، أما اليوم فإن نسبة المراهقين في قوة العمل تبلغ بالفعل نسبة الصفر بالمائة. و منذ مائة عام مضت بلغت نسبة العمال الرجال الذين يتقاعدون عن العمل عند سن الخامسة والستين نسبة ٢٦٪، أما اليوم فإن النسبة قد تجاوزت ٨٠٪. و منذ مائة عام مضت كانت ربة المنزل تقضي اثنتي عشرة ساعة يوميًّا في غسيل الملابس والطبخ والتنظيف والحياكة أما اليوم فالأمر كله يستغرق قرابة ثلاث ساعات.

وفيما يأتي يوم غسيل تقليدي لربة المنزل في عام ١٩٠٠: في البداية كانت تحضر الماء إلى الموقد، ثم تضرم النار في الخشب أو الفحم لتسخن الماء، ثم تغسل الملابس بيديها، ثم تشطف الملابس، ثم تعصرها إما بيديها أو باستخدام عصارة ميكانيكية، ثم تنشر الملابس لتجف، ثم تتوجه بعد ذلك لمهمة أخرى ثقيلة الوطأة، وهي الكي باستخدام مكواة ثقيلة، تُسَخَّن باستمرار بوضعها على الموقد، وهذه العملية تستغرق ما يقرب من ثماني ساعات ونصف، تقوم فيها هذه المسكينة بالمشي لما يزيد عن ميل. وقد عرفنا هذه المعلومات القيمة بسبب اعتياد حكومة الولايات المتحدة على تعيين باحثين لتتبع ربات المنازل وتسجيل كل خطوة يخطونها، وهكذا أمكننا معرفة كل هذه المعلومات.

لم يتعلق الأمر فقط بغسيل الملابس، ففي بداية القرن العشرين لم يكن لدى الأسر الأمريكية مياه جارية، والقليل من هذه الأسر كان لديها تدفئة مركزية، ولهذا فقد كان العمل الروتيني يتضمن نقل سبعة أطنان من الفحم وتسعة آلاف جالون من الماء يوضعون حول المنزل كل عام.

امتلكت بطلتنا في الغالب بحلول عام ١٩٤٥م غسالة كهربائية، وفي هذه السنة، فإن المدة التي تستغرقها مهمة الغسيل الروتينية قد أصبحت ساعتين ونصف بدلًا من ثماني ساعات ونصف، وبعد أن كانت تمشي ميلًا في الماضي أصبحت تمشي ستمائة وخمسة وستين قدمًا فقط، أما اليوم فلم تعد بطلتنا في حاجة لإضاعة أية لحظة من وقتها في مراقبة غسيلها؛ فإنه بالإمكان الحصول على غسالة ترسل بريدًا إليكترونيًّا لصاحبتها عندما تنتهي من الغسيل!

تمتلك نسبة ٩٩٪ ممن يمكن وصفهم بأنهم أفقر الفقراء في الولايات المتحدة اليوم — وهم من يعيشون في عائلة يقل دخلها عن ١٥٬٠٠٠ دولار سنويًّا — ثلاجات (٨٣٪ منها بها ميزة عدم التجميد)؛ ويمتلك٦٤٪ منهم أجهزة تكييف، و٩٧٪ منهم أجهزة تلفاز ملونة، وأكثر من نسبة الثلثين منهم يشتركون في خدمات تليفزيون الكيبل، بالإضافة إلى أن ٦٠٪ منهم يمتلكون غسالات ومجففات، وما يقرب من ٥٠٪ منهم لديهم حاسبات شخصية، ويتمتع معظمهم بالدخول على شبكة الإنترنت.

وأما عن نوعية السلع التي نشتريها، فحاول أن تحصل على دليل إلكتروني للسلع لعام ٢٠٠١م على سبيل المثال، واسأل نفسك عما إذا كان هناك أي شيء تفكر أن تمتلكه. كانت هذه السنة هي السنة التي أنفق فيها صديقي «بن» ستمائة دولار لشراء كاميرا رقمية ذات كفاءة ١٫٣ ميجا بكسل، وتزن أوقية ونصف، وتنقل الصور إلى قرص مرن مدمج بالكاميرا! هيا احصل على هذا الكتالوج وأضمن لك أن تدهش من حجم التحسن في المنتجات في السنوات القليلة الماضية.

أو — إذا كنت تفضل — يمكنك أن تأخذ منتجًا مثل الرعاية الصحية: هل تفضل شراء خدمات الرعاية الصحية اليوم بسعر اليوم أم خدمات الرعاية الصحية على سبيل المثال في عام ١٩٧٠م بأسعار عام ١٩٧٠م؟ لا أعرف أي إنسان متعلم يمكن أن يختار خدمات عام ١٩٧٠م، وهو ما يعني أنه مع كل الدعاية السيئة التي تحيط بالرعاية الصحية فإن حالها اليوم أفضل كثيرًا من ذي قبل، فها قد تحسنت صحتنا وطالت أعمارنا. وفي الحقيقة فإن

فرصة أن يكون لدى شاب في العشرين من عمره جدةٌ على قيد الحياة اليوم تزيد عن فرصة شاب في العشرين من عمره منذ مائة عام مضت بأن يكون لديه أمٌّ على قيد الحياة.

يقصد من هذا المثال أن الارتفاع في الدخل المُقاس وفقًا لمستوى الأسعار measured income — حتى في ظل الارتفاع الهائل الذي شهده في القرنين السابقين — لا يعكس بدقة التحسن في الظروف الاقتصادية. ربما يقل الدخل المُقاس للعامل الأمريكي العادي من الطبقة المتوسطة عن مثيله الذي عاش في المَلَكيات الأوربية في العصور الوسطى، ولكن ذلك لم يمنع المواطن الأمريكي من أن يحيا واحدةً من أكثر أنواع الحياة ترفًا. وأظن أن هنري الثامن — ملك إنجلترا الشهير — كان من الممكن أن يقايض نصف مملكته مقابل أن ينعم بالتجهيزات الحديثة في الحمامات والصرف الصحي، ومخزونٍ يكفي مدى الحياة من البنسلين إلى جانب تمتعه بالدخول على شبكة الإنترنت.

هل تستمر هذه الاتجاهات؟ لا يعرف أحد بالطبع، مثلما لا يعرف أحد إن كان أحد الكويكبات سيدمر الأرض في السنوات العشر القادمة أم لا، ومع ذلك فيمكن أن نقوم ببعض التكهنات القائمة على الخبرة والمعلومات فيما يتعلق باحتمالات حدوث ذلك. وفي حقيقة الأمر فإننا نعرف تمام المعرفة أن النمو الاقتصادي (مع بعض التقلبات الطفيفة) لم يتوقف واستمر ونما بوتيرة أسرع في المئتي عام الأخيرة. وكذلك نعرف أن التقدم التكنولوجي هو الذي دعم هذا النمو، ويمكن منطقيًّا أن نتكهن أيضًا أن السبب وراء عدم نفاد ذلك الدعم هو أن التقدم التكنولوجي يجدد نفسه بنفسه حيث إن كل فكرة حديثة تزيد من سهولة التوصل إلى فكرة أحدث وأحدث. أضف إلى هذا تلك الحُجة التي ساقها الأستاذ كريمر بأن زيادة الثروة تسمح لنا بإعالة عدد أكبر من السكان الذي بدوره يقود لسبل جديدة لخلق الثروة وهذا سبب رائع للتفاؤل.

يمكن بالطبع لمن يشك في هذه التكهنات أن يشير بالبنان إلى تلك الدول التي يعيش فيها عدد سكان مرتفع في ظل ظروف اقتصادية بالغة السوء،[٦]

[٦] أما من يؤمن بصدق تكهناتي فيمكن أن يشير إلى هونج كونج.

ولكن يمكن الرد على هذا الأمر بأنه ما من شك بأن ذلك يحدث في دول عملت فيها السياسات الحكومية — التي تحد من مكافأة البراعة والإبداع، وتحد أيضًا من فرص التجارة — على الحد من الاستفادة الطبيعية من النمو السكاني الذي يعتبر بمنزلة قناة مائية كبيرة يجتمع فيها عباقرة وعدد هائل من شركاء التجارة. وفي الحقيقة فحينما يجري التخلص من مزايا النمو السكاني فلن يتبقى شيء سوى المساوئ الناجمة عنه.[٧]

ليس هذا فحسب، بل إن عدد السكان الكبير يجلب الكثير من النعم بجانب الرخاء الاقتصادي. إننا نقدر ونعتز بجيراننا ليس فقط لكونهم شركاء تجارة محتملين ولكن لكونهم أيضًا أصدقاء محتملين، وربما كزوجات وأزواج محتملين. وكذلك فنحن نعتز كثيرًا بأطفالنا لأسباب لا علاقة لها بقدرتهم على تحقيق الكسب المالي. ونحن نجد أن الكثير من الناس يفضلون الحياة في نيويورك عنها في مونتانا أو ربما نجدهم يعشقون الحياة في مدينة كلكتا الهندية عنها في الريف المجاور لها. نرى هذه التفضيلات في الواقع نظرًا لوجود مميزات للحياة وسط عدد كبير من الناس.

كلما زاد عدد سكان العالم زاد التنوع، وأمكن أن تستمر تلك الأشياء مثل: موسيقى الحجرة ورياضة الإبحار الجوي والمطاعم الأثيوبية، فمثل هذه التفضيلات لن ترى النور ما دامت تفتقر إلى وجود عدد سكان كبير يمكن أن يدعمها. وفي الحقيقة ففي ظل مجتمع فقير سكانيًّا، لن يكون هناك عدد قراء كبير يمكن أن يمنح ناشر هذا الكتاب مبررًا لنشره. (من فضلك ممنوع السخرية!).

ربما يشكو الناس ممن يعيشون في مانهاتن وديترويت من الزحام، ولكن ما داموا قد ظلوا يعيشون كما هم في مدنهم التي يشكون منها مر الشكوى فمن الصعب أن نأخذ شكواهم على محمل الجد، فيوجد الكثير من المناطق التي يندر فيها السكان في الولايات المتحدة والمجال متاح أمام الجميع للرحيل

[٧] يمكن أن يجادل المرء أيضًا بأن عدد سكان الدول ليس من المتغيرات المتوافقة لأن أي شيء يخترع في مكان ما يمكن أن يقلد بسهولة في مكان آخر، وهكذا يكون الأكثر أهمية هو عدد سكان العالم وليس عدد سكان الدول الفردية.

إلى تلك المناطق. سيقول لك سكان مانهاتن إنهم يعيشون في نيويورك بسبب المسرح أو أوركسترا فيلاهارمونيك السيمفوني، أو لوجود فرص عمل، ولكن كل هذه الأعذار ليست سوى مرادفات لقولهم إنهم يعيشون في نيويورك لأنها مزدحمة.

يوجد الكثير من المنافع للنمو السكاني وأكثرها أهمية أنها منافع «ذات تأثيرات غير مباشرة»؛ فحينما قررتُ أن أنجب طفلًا كنت أنت الرابح، ولتحديد ما إذا كانت الأرض التي نعيش فوقها ذات عدد أكبر أو أقل من السكان فيجب أن نقيس هذه المنافع ذات التأثيرات غير المباشرة مقارنة بأية تكاليف أخرى ذات تأثيرات غير مباشرة يمكن أن نضعها موضع الاعتبار.

دعني في البداية أعترف بالمنافع وبالتكاليف ذات الآثار المباشرة. لقد تراجع دخل أسرتي بمقدار الثلث حينما وُلدتْ ابنتي (لأن الدخل الآن أصبح موزعًا بين ثلاثة بدلًا من اثنين فقط)، وبدون موازنة المنافع، كان من الممكن اعتبار ذلك اليوم من أسوأ أيام حياتي، ولكن على العكس فقد كان أفضلها. (أشار عالم الاقتصاد بيتر باور ذات مرة أنه إذا كان دخل الفرد هو المقياس الحقيقي للسعادة البشرية فإن ميلاد أحد حيوانات المزرعة يعد نعمة في حين يكون ميلاد طفل نقمة كبيرة.)

ومع ضخامة هذه المنافع والتكاليف الخاصة (التي يقتصر أثرها على المعني بالأمر فحسب) فإنها تعتبر غير ذات صلة مطلقًا بمسألة النمو السكاني، لأن الناس لديهم بالفعل كل المحفزات التي تبرر لهم تحديد حجم أسرهم، وهم يفعلون هذا الأمر دائمًا. ويعد حجم الأسرة من الأمور الحساسة للغاية التي تتأثر بالتغيرات في الظروف الاقتصادية. حينما ارتفعت قيمة العوائد الاقتصادية للتعليم في كل أنحاء العالم، تقلص عدد أفراد الأسرة وذلك حتى يستطيع الآباء تحمل تكاليف تعليم أطفالهم. (وهذا هو العامل الأساسي وراء شيوع أن يكون هناك في الأسرة الواحدة سبعة أطفال أو ثمانية أو حتى تسعة في القرن التاسع عشر في حين أننا لم نعد نرى ذلك إلا نادرًا في زماننا هذا). ويرتبط تناقص معدل وفيات الأطفال في جميع أنحاء العالم ارتباطًا

وثيقًا بتناقص معدل المواليد، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول: إنه كلما نجا عدد أكبر من أولادك من الموت قابلت هذا الأمر بتقليل عدد أولادك في المستقبل. ويشير هذا الاستنتاج إلى أن السواد الأعظم من المواليد يأتي إلى عالمنا بطريق الاختيار وليس صدفة.

وعلى مستوى أصغر، كان لدى الحكومة النمساوية ما يكفي من الكرم لإجراء تجربة عبقرية عظيمة، فقد منحت من تلد طفلها الأول إجازة لمدة عام، تحصل خلاله على راتب شهري من الحكومة. زادت مرونة هذا القانون أكثر وأكثر في عام ١٩٩٠ حيث منح الكثيرات ممن يلدن طفلهن الثاني إجازة لمدة عام آخر، شريطة أن يكون ميلاد الطفل الثاني قد حدث في أثناء عامين من ميلاد الطفل الأول.

كان هذا التغير مفاجئًا، فإذا كانت إحدى هؤلاء السيدات قد أنجبت طفلها في شهر يونيو عام ١٩٩٠ فستنطبق عليها القوانين القديمة أما إذا أنجبت في شهر يوليو فستنطبق عليها القوانين الجديدة، ولن يكون لديها حق اختيار القوانين المطبقة عليها؛ فلم يُقَدَّم القانون للموافقة عليه من جانب الحكومة حتى شهر نوفمبر عام ١٩٨٩ حيث كان السيف قد سبق العذل؛ فلم يكن هناك ما يكفي من الوقت أمام الناس لرسم خطة إنجاب أطفال على نحو يتفق مع أحكام هذا القانون.

ماذا كانت النتيجة؟ الواقع يقول إنه قد زاد احتمال إنجاب النساء اللائي أصبحن أمهات للمرة الأولى في شهر يوليو لطفل ثانٍ خلال عامين من إنجابهن الطفل الأول بنسبة ١٥٪ بالمقارنة بالنساء اللائي أَصبحن أمهات للمرة الأولى في شهر يونيو. وقد ثبت بعد تطبيق هذا القانون بعشر سنوات أن أمهات شهر يوليو ما زلن يتفوقن في عدد الأبناء بالمقارنة بأمهات شهر يونيو.

بعبارة أخرى يمكن القول بأن الآباء والأمهات يستجيبون للمحفزات حتى لو كانت تلك المحفزات ضئيلة نسبيًّا (بلغت قيمة الشيكات الشهرية الممنوحة من الحكومة النمساوية ما يقرب من ٣٥٠ دولارًا لكل امرأة من هؤلاء السيدات اللائي سبق الحديث عنهن). يعني ذلك أن الآباء والأمهات يقومون بإجراء حسابات على قدر هائل من الحساسية فيما يخص التكلفة

والمنفعة ثم يقررون بعدها وبإدراك تام ما إذا كانوا سيقومون بهذا الأمر أم لا.

وانطلاقًا من حقيقة أنني أردت إنجاب طفلة، فيمكنك استنتاج أنني اعتقدت أن هذه الطفلة تستحق عناء التكاليف «ومهما كان شعوري بالتكاليف فإن المنافع من وجهة نظري كانت أكبر»، ومن المفترض أن آباءك أحسوا نفس الإحساس تجاهك ولولا ذلك ما كنت موجودًا بهذا العالم، وقبل كل هذا، فإن هناك المنافع ذات التأثيرات غير المباشرة، فأنت (تمامًا مثل ابنتي) تسهم في زيادة المخزون العالمي من الأفكار، ومن التنوع ومن الحب، ولكن ذلك لا يستتبع أن العالم يجب أن يثني على خصوبتي أو خصوبة والديك؛ فمع هذ المنافع ذات التأثيرات غير المباشرة توجد أيضًا تكاليف ذات تأثيرات غير مباشرة.

ولكن يتعين عليك الحذر؛ فمن السهل الخلط بين ما له تأثير غير مباشر وما ليس له نفس التأثير. خذ على سبيل المثال استهلاك الموارد، ما دمت تحيا في هذا العالم فلك أن تطالب بنصيب من موارد العالم من الطعام والنفط والأراضي وغيرها من الموارد. ربما تظن بطلبك أن هذا سيسهم في إفقار كل الجيران بقدر ضئيل، لكن ذلك غير صحيح. ولكي تعرف السبب في عدم صحة ظنك، فكر بالطريقة التي تطلب بها تلك الموارد. فأنت تنتج بعض هذه الموارد (مثل زراعتك شجرة تفاح) وهذا لا يفقر أحدًا بكل تأكيد. وكذلك لا يفقر أحدًا أيضًا حصولك على البعض الآخر من هذه الموارد عن طريق المقايضة (ربما تأخذ مني تفاحة أو جالونًا من الجازولين ولكنني أحصل على شيء يمثل لي قيمة أكبر في المقابل.) أما مسألة قيامك بتقليل نصيب شخص آخر فهي تحدث فقط عندما تحصل على نصيبك من ميراثك الشرعي. ولكن هذا الميراث أيضًا لا ينتقص شيئًا من موارد الإنسانية وإنما ينتقص فحسب من نصيب أشقائك في العائلة.

يمكن القول بأن هذه النقطة عظيمة الأهمية ويجري إغفالها كثيرًا؛ فعندما يفكر الناس بمسألة الاكتظاظ السكاني، فهم عادة ما يتصورن

أنه — على سبيل المثال — إذا لم أكن قد وُلدت فإن كل إنسان آخر سيحصل على نصيب أكبر من الكعكة، وفي الواقع فإنني لو لم أولد فإن كل واحدة من شقيقاتي فحسب كانت ستحصل على نصيب أكبر من الكعكة، أما باقي البشر فسيحصل كل منهم على نفس النصيب الذي يحصلون عليه الآن.

توحي هذه الملاحظة البسيطة بأن كل أسرة يمكن أن تختار لنفسها معدل نمو سكاني خاص بها، وليس من المنطقي — في الغالب — أن تتعرض أسرة لنقص الموارد بسبب هذا النمو السكاني، إلا إذا كانت تريد حدوث ذلك. لنفترض معًا أنني وأنت قد ملكنا قطعتين من الأرض لكل واحد قطعة مساحتها ألف فدان، ثم حدث أن تضاعف عدد أفراد أسرتي في كل جيل، في الوقت الذي تمارس فيه أسرتك سياسة منظمة «انعدام النمو السكاني» التي يفضل مُتبعوها عدم الإنجاب من الأساس، ففي عشرة أجيال سيمتلك كل حفيد من أحفادي قطعة أرض مساحتها أقل من فدان، في حين سيمتلك أحفادك نفس قطعة الأرض ذات الألف فدان، وهكذا فإن التكاليف الناجمة عن الخصوبة الفائقة في عائلتي لا تعنيك في شيء.

بالتأكيد هناك استثناءات، فإذا أصبح عدد أفراد عائلتي كبيرًا جدًّا، فربما نقرر إعلان الحرب على عائلتك. يمثل ذلك تكلفة ذات تأثيرات غير مباشرة يمكن أن تسبب لك بعض القلق المشروع، فإذا أصبحتُ لصًّا أو ملوثًا كبيرًا أو حاصلًا على إعانة من الحكومة فمن حقك أن تتمنى عدم ولادتي من الأصل في هذا العالم، ولكن لحسن الحظ فإن معظم الناس يحصلون على جزء صغير فقط من مواردهم عن طريق الحرب أو السرقة أو سخاء الحكومة وما تهبه من هبات، ومن أجل ذلك فإن لم تكن شخصًا استثنائيًا، فإن معظم ما تستهلك من الموارد لا يعتبر تكاليف ذات تأثيرات غير مباشرة.

تفضل بعض الأسر أن تكون ذريتها من «الأثرياء»، في حين يفضل البعض الآخر ذرية ذات «عدد كبير»، ولكن ما دامت خياراتنا لا يصطدم بعضها ببعض، فهذا الاختلاف لن يكون ذا شأن كبير وإنما سيكون فرصة للاحتفال بالتنوع.

استقبل توماس مالتوس الذي يوصف بأنه «أكثر العلماء كآبة» القرن العشرين بالإعلان عن نبوءة في غاية التشاؤم مفادها أن عدم التحكم في النمو السكاني سيقود إلى مجاعة جماعية وشقاء للبشرية. ما هو الخطأ الذي وقع فيه مالتوس بنبؤته هذه؟ الإجابة على هذا السؤال هي أن مالتوس لم يخطئ في الواقع خطأً جسيمًا واحدًا، بل خطأين؛ فهو أولًا قد أساء حساب منافع النمو السكاني، وثانيًا قد أساء حساب التكاليف.

أما المنافع فقد فشل مالتوس في التنبؤ بأن التقدم التكنولوجي — والمدعوم من النمو السكاني الذي وصفه بأنه نذير خطر — كان وما زال يسهم في زيادة إنتاج الغذاء بمعدلات خيالية. وأما جانب التكاليف فقد فشل في إدراك أن كل أسرة لديها مطلق الحرية في اختيار معدل نموها السكاني، ولهذا فمهما يحدث بخصوص إمدادات الغذاء فلا يجب أن تكون هناك أسرة فقيرة بسبب نموها السكاني، إلا إذا أرادت هي ذلك.

ربما تظن أن «الاكتظاظ السكاني» ما هو إلا تكلفة ذات تأثيرات غير مباشرة للنمو السكاني، ولكن هذا الاكتظاظ السكاني لا يمثل في الحقيقة أية تكلفة، لأنه يحدث طواعية مائة بالمائة، فأنت لست مضطرًّا للحياة في مكان مزدحم إلا إذا كنت ترغب في ذلك، فيمكنك أن تستمتع بالمنافع الثقافية لمدينة مكتظة بالسكان مثل نيويورك ويمكنك في الوقت ذاته الاستمتاع بالهدوء في منطقة ريفية مثل فيرجينيا، وعلى هذا يمكن القول بأنه إذا تخلصنا من الزحام في نيويورك فلن يكون ما فعلناه حينذاك سوى التخلص من أحد الخيارات المتاحة.

يمتلك سكان شيكاغو الحرية في الانتقال للحياة في نبراسكا شأنهم شأن سكان كلكتا الذين لديهم الحرية في الانتقال للحياة في الريف، ولكن مع امتلاكهم لهذه الحرية فهم لا يستعملونها ويبقون في مساكنهم، مع كل ذلك التذمر ومرارة الشكوى، ويرجع ذلك إلى أنهم يفضلون الزحام. فبرب السماء والأرض لماذا لا تكون أسعار إيجارات المساكن في مانهاتن بهذا الغلو لو لم يكن البشر يقدرون بشدة حياتهم في الزحام معًا؟

لا يقر سكان نيويورك أيضًا بهذه الحقيقة؛ ففي دراسة حديثة صرح ٣٧٪ من سكان نيويورك أنهم كانوا سيتركون المدينة لو كان الخيار خيارهم، ولأن المدينة لم يغادرها أحد منهم مع مقدرتهم على مغادرتها، فيمكن القول إن نسبة ٣٧٪ منهم قد كذبوا على من قاموا بهذا الاستفتاء.

وفي الحقيقة فإن الزحام لا يمثل مشكلة فعلية لأنه يمكنك بمنتهى السهولة أن تتركه وترحل إذا كان مصدرًا لضيقك وحنقك. أنا أعلم أن هناك كثيرًا من البشر في العالم إلا أنني من المؤكد لست أول شخص يلاحظ أن وادي «جراند كانيون» يمكن أن يستوعبهم جميعًا إذا وقفوا بالطريقة الصحيحة، وإذا لم يعجبك التشبيه السابق فها هو تشبيه آخر أستعيره من عالم الاقتصاد توماس سويل: خذ ولاية تكساس وقسمها إلى قطع متساوية بحيث تكون كل قطعة ٥٫٠٠٠ قدم مربع. قم ببناء منزلٍ في كل قطعة وضع عائلة من أربعة أفراد في كل منزل، بهذه الطريقة يمكن استيعاب سكان العالم أجمع.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الكثير من الأمور الأخرى ذات التأثيرات غير المباشرة تكون خادعة أيضًا. ربما تظن — على سبيل المثال — أنك تفرض تكلفة عليَّ عندما تتقدم بسعر أعلى مني لشراء سيارة، أو عندما تتقدم لوظيفة كنت أتمنى أن أحصل عليها. هذه الأمور في الحقيقة ليست تكلفة حقيقية؛ لأنها تأتي متزامنة مع منافع أخرى. فحينما يرتفع سعر السيارات، يربح البائعون بمقدار خسارة المشترين. وحينما تثبت أنك تستحق الوظيفة أكثر مني، فإن خسارتي تعتبر في الوقت نفسه بمنزلة منفعة لصاحب العمل (ومكسب لعملائه كذلك).

يسأل المحترفون ممن يعشقون إثارة المخاوف جميع الأسئلة الخاطئة، فهم يسألون مثلًا: كم عدد البشر الذين يمكن أن تطعمهم الأرض؟ فهذا بكل تأكيد سؤال خاطئ للغاية؛ لأن الأرض ليست صانع قرار. وفي الحقيقة لا يوجد ما يستدعي لأن تشعر بالقلق بشأن عدد البشر الذين يمكن أن تطعمهم الأرض، فأنت تمتلك الحرية الكاملة في التركيز على عدد البشر الذين يمكن أن يعيلهم نصيبك من الأرض، وتحدد عدد أفراد أسرتك وفقًا لذلك، فإذا

قرر شخص آخر أن يقلص من نصيبه بعض الشيء فبالطبع لن يعترض على هذا الأمر أحد سوى المتطفلين.

أو: ماذا نفعل حينما ينفد النفط أو أي مصدر آخر من المصادر القابلة للنفاد؟ هذا السؤال خاطئ؛ لأنه يفترض أن استهلاكنا من النفط يفرض تكلفة على جيراننا فضلًا عن أنفسنا. إن روبنسون كروزو بطل الرواية الشهيرة التي تحمل اسمه التي كتبها «دانييل ديفو» ما كان سيفرط في استعمال النفط بل كان سيرغب في امتلاك الكثير منه، ولكن بالنظر إلى الكمية التي يمتلكها منه فإن لديه ما يكفي من المحفزات لكي يتخذ أفضل وأصح القرارات فيما يتعلق بالكمية التي يجب أن يستخدمها والكمية التي ينبغي أن يدخرها للمستقبل.

ويصح نفس الأمر أيضًا إذا كان روبنسون كروزو لديه أطفال وأحفاد يعيلهم؛ حيث إن الرصيد الذي كان سيدخره لأولاده وأحفاده في المستقبل سوف ينخفض مع كل جالون يحرقه من النفط، ولهذا فهو يضع أيضًا هذا الأمر في اعتباره عندما يتخذ قرارًا بشأن استهلاكه.

ولكن ماذا لو كان هناك الكثير من الأسر يعيشون فوق هذه الجزيرة في حين يهتم روبنسون كروزو بشأن عائلته فحسب؟ لا يزال الأمر لا يمثل أية مشكلة؛ لنفس السبب الذي ذكرناه من قبل، وهو أن أسرة كروزو إما أنها تمتلك بعض النفط أو تمتلك بعض الأصول التي من المتوقع أن تبادلها مقابل النفط ثم تتخذ قرارتها بشأن إدارة مواردها، ولا يوجد أي داع لأن يصطدم أي قرار بالآخر.

وإذا تملكك القلق بشأن عدم وجود ما يكفي لأسرتك من النفط فيمكنك أن تخفض عدد أفراد أسرتك وفقًا لذلك، أما إذا كانت مدعاة قلقك هي ذلك التجاهل المتهور من البعض للكارثة المحدقة، فإن هذا أيضًا لا يجب أن يكون مبررًا لقلقك؛ لأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد فرصة تجارية ويمكنك حينئذ أن تشتري بئر نفط وسوف يصبح أطفالك من الأغنياء. وإذا كانت هذه الأسر الأخرى تتصرف على نحو أحمق بالفعل فإن الأمر لن يضيرك شيئًا إذا تركتهم يخطئون.

وفيما يأتي السؤال الصحيح: هل كان ميلادك أو ميلاد أي طفل آخر نعمة أم نقمة؟

من غير المجدي الإجابة على هذا السؤال عن طريق ذكر كل التكاليف والمنافع التي يشترك فيها الناس بعضهم مع بعض؛ لأنك لن تعرف مطلقًا أيًّا من الأمور قد أغفلتها في حساباتك. فبعد قضاء وقت طويل في سيارتك وسط الزحام المروري الرهيب أثناء فصل الصيف فإنك لن تنسى أن السائق الذي كانت سيارته تقف أمامك قد فرض عليك تكلفة، ولكنك لن تتذكر أن الرجل الذي اخترع جهاز التكييف المستخدم بداخل السيارات قد قدم لك منفعة. ولن تنسى ذلك المتسوق الذي يبحث مرتبكًا عن قسائم الدفع مما أبطأ من الصف الذي كنت تقف فيه لتدفع فاتورتك، ولكنك لن تتذكر ذلك الرجل الغريب الكريم الذي ساعدك في تغيير إطار السيارة ذات ليلة شتوية باردة. وقد اعتاد سكان نيويورك تذكر الشكوى من الزحام ولكنهم ينسون أنه بدون مثل ذلك الزحام كانت نيويورك سيكون شأنها شأن الكثير من المدن الصغيرة الأخرى مثل سيدار رابيدز.

ولهذا فبدلًا من وضع قوائم من الأسئلة فإن المنهج الصحيح هو إعادة طرح ما كان في عقول الآباء عندما قرروا إمكانية الإنجاب، والتساؤل عن تفضيلاتهم. أليس من المحتمل أنهم قد أساءوا حساب التكاليف أو أساءوا حساب المنافع؟

من غير المحتمل أن يكونوا قد غضوا الطرف عن الكثير من التكاليف وذلك لأن التكاليف مركزة في عائلتك؛ عندما ولدت أنت فقد تحولت المصادر (بما في ذلك المصادر الملموسة مثل الأراضي الموروثة والمصادر غير الملموسة مثل اهتمام الأبوين) بعيدًا عن أشقائك الآخرين الذين كانوا يحظون بحب والديك. وبمعنى آخر فهذه التكاليف ليست ذات تأثيرات غير مباشرة، وكذلك فإن الاكتظاظ السكاني لا يمثل تكلفة ذات تأثيرات غير مباشرة لأن الزحام يحدث طواعية.

أما المنافع — وهي إسهاماتك الحالية في المخزون العالمي من الأفكار والحب والصداقة والتنوع — فلا تتركز في مكان واحد وإنما تتصف بقدر

أكبر من الانتشار. فأنا أشعر بالسعادة لأنك موجود في عالمنا حتى تقرأ هذا الكتاب على سبيل المثال (وإن كنت سأكون أكثر سعادة إذا اشتريته!)، وإذا صنعت مصيدة فئران شديدة الفعالية فسوف يدين لك الملايين بالشكر، وحتى إذا كان كل ما تقوم به هو الابتسام فسوف ترسم لوحة مشرقة على جبين آلاف الأيام. لا ندري كيف يمكن حصر هذه المنافع، ولكننا نعرف أن الكثير منها يعود على أناس غرباء تمامًا عنا، وفي الغالب فإن آباءك لم يفكروا فيهم قط.

لذا فعندما يقرر آباؤك أَنْ يأتوا بك إلى هذا العالم، فقد وَزنوا أغلب التكاليف أمام جزء صغير فقط من المنافع، ومع ذلك فهم ما زالوا يُريدونَك! ومِن منظور اجتماعي أوسع — وهو المنظور الذي يزن «كل» التكاليف والمنافع — فلا بد أنك كنت وقتئذ صفقة رابحة تمامًا.

تنطبق هذه الحُجة أيضًا على معظم الأطفال باستثناء هؤلاء الأطفال الذين يفرضون تكاليف حقيقية خارج نطاق عائلاتهم كأن يصبحوا لصوصًا أو غزاة أو مذيعين في البرامج التلفزيونية التي تعرضها محطات المؤسسة العامة للبث التلفزيوني (PBS).

عندما يكون صانع القرار مدركًا للتكاليف بأكثر من إدراكه للمنافعِ، فإنه يَمِيل إلى اتخاذ القراراتِ المتصفة بقدر أكبر من التحفظ، ويعني ذلك بالتأكيد أن الآباء سيكون لديهم عدد أطفالٍ أقلُّ من المرغوب فيه على المستوى الاجتماعي، ولذا، يَنْمو السكان نموًّا بطيئًا للغاية.

يعتبر نمو السكان على النقيض تمامًا من التلوث، فمالك مصنعِ الحديد الملوث للبيئة يقيس كُلّ منافعه (وهي أرباحه) بمقارنتها بجزء فقط من تكلفتها (يَحْسب نفقاته، لكنه لا ينظر لصحة الجيران)، لذا، فهو ينتج أكثر مما ينبغي. وعلى العكس منه، يقيس الآباء كل — أَو على الأقل معظم — تكاليف إنجاب طفل إضافي (تتحول المصادر عندئذ بعيدًا عن أطفالهم هم) بالمقارنة بجزء فقط من المنافع (يحسبون حبهم الخاص لأطفالِهم هم، لكن لا يحسبون حبَّ الآخرين لأطفالِهم)، لذا، فهم ينجبون أقل مما ينبغي.

يمكن القول بعبارة أخرى: إن مناسبات مثل مناسبات إنجاب الآخرين لمزيد من الأطفال هي دائمًا مناسبات تستدعي الفرح والسعادة؛ فهؤلاء الأطفال قد يثرون حياتك في الوقت الذي يقوم فيه شخص آخر بعناء تربيتهم. يعني ذلك أننا يجب أن نكون على استعداد لأن يدعم كل منا خصوبة الآخر، لأنه في ظل غياب هذا الدعم سيكون لدينا عدد أقل من الأطفال تمامًا مثلما نعاني وجود قدر أكبر من التلوث في ظل غياب الغرامات أو الضرائب المناسبة.

في مكان ما من العالم توجد هناك شابة ساءت حياتها بسبب فشلِي في إنجاب الابن الذي يخلب لُبها يومًا ما، فإذا كنت قد أوليت هذه الشابة نفس القدر من الاهتمام الذي أوليه ابنتي، كنت سأنجب ذلك الابن، ولكنني توقفت عن الإنجاب في وقت مبكر للغاية لأنني تصرفت وكأن أطفال الناس الآخرين أقل أهمية من أولادي.

أستطيع أن أقول وبعبارة أخرى: إنني كنت أنانيًّا عندما قللت عدد أفراد عائلتي. أنا أدرك معنى أن يكون المرء أنانيًّا، لكني لا أستطيع أن أدرك السر وراء تشجيع الآخرين لِكي يكونوا أنانيين، وهو الغرض التام لمنظماتِ مثل منظمة «انعدام النمو السكاني» Zero Population Growth التي تغير اسمها الآن إلى اسم Population Connection. فبدلًا من ذلك، يجب علينا أَن نبحث عن الطرق المناسبة التي تدَعْم الإنجاب والخصوبة، فعالم مليء بالسكان لن يكون عالمًا ثريًّا من الناحية الاقتصادية فحسب بل إنه سيقدم لنا مزيدًا من الأصدقاء المحتملين يشاركوننا اهتماماتنا ويقدم مزيدًا من السلوكيات الرحيمة بين الغرباء، وفرصةً أفضل لإيجاد الحب. وفي حقيقة الأمر فإن مثل هذا العالم هو ما نَدين به لأطفالنا.

الفصل الثالث

أشياء أحببها في «إبنزر سكروج»

من الأمور التي أحببتها في شخصية إبنزر سكروج Ebenezer Scrooge — التي نسج خيوطها تشارلز ديكنز في مسرحيته الشهيرة «أنشودة عيد الميلاد» — هي تلك الغرف المتواضعة في منزلة التي كانت مظلمة لأن الظلام رخيص الثمن، وكذا لم تكن هذه الغرف تنعم بتدفئة زائدة عن الحد لأن الفحم لا يُقَدَّم مجانًا، وأحببت أيضًا تلك العصيدة التي كان يتناولها دائمًا في عشائه الذي كان يعده بنفسه دائمًا فقد كان يرفض أن يدفع مالًا لأي إنسان لكي يعمل خادمًا عنده.

لُقِّبَ إبنزر سكروج بالبخيل الشحيح، ولكنني أرى أن هذا الوصف ظالم وغير صحيح؛ فما الذي يمكن أن يكون أكثر سخاءً من ترك مصابيحك غير مضاءة، وطبق طعامك فارغًا، تاركًا للآخرين قدرًا أكبر من الوقود كي يحرقوه وقسطًا أكبر من الطعام كي يأكلوه؟ من أكرم من هذا الجار الذي لا يعمل لديه أي خادم، مفضلًا تحرير الخدم لخدمة أناس غيره؟

قد يشوب هذه المسألة قدر طفيف من التعقيد؛ فعندما يطلب سكروج كمية قليلة من الفحم لمدفأته، فربما يقرر عمال المناجم استخراج كمية أقل من الفحم. لكن هذه النتيجة لا بأس بها أيضًا، فحينئذ وبدلًا من استخراج الفحم لسكروج، فإن أحد عمال المناجم سيكون حرًّا للقيام بما يطيب له وأداء خدمات أخرى سواء لنفسه أو للآخرين.

يخبرنا تشارلز ديكنز أن اللورد مايور — أحد شخصيات المسرحية نفسها — وهو في قصر مانشين هاوس الحصين أمر طُهاته الخمسين ورؤساء

الخدم أن يجعلوا عيد الميلاد في قصره على الصورة التي تليق باستقبال مجموعة من الضيوف استقبالًا كبيرًا فيشيدون إشادة بالغة بكرم اللورد مايور. يمكن القول بأن هذه الحجارة والمدقات الحجرية وكذلك العمال الذين عملوا في بناء قصر اللورد مايور كان من الممكن أن يعملوا في بناء مئات المساكن للآخرين. أما عن سكروج فهو لم يحرم أي إنسان من مسكنه، حيث عاش حياته في منزل من ثلاث حجرات فحسب. لم يوظف سكروج لديه أي طاهٍ أو رئيس خدم ليفسح بذلك الطريق أمام توظيف هؤلاء الطهاة ورؤساء الخدم لدى أسرة لا تعلم شيئًا عن الدَّين الذي تَدين به للسيد إبنزر سكروج.

وفي واقع الأمر لا يوجد في العالم من يفوق البخيل في سخائه، فهو الرجل الذي يمكن أن يُنْضِب موارد العالم ولكنه يترفع عن فعل ذلك. والاختلاف الوحيد بين البخل والبذخ أن البذخ يعود نفعه على عدد قليل من المختارين، أما البخل فيمتد نفعه وكرمه للقاصي والداني.

إذا بنيت منزلًا جديدًا بدلًا من شرائك منزل قائم بالفعل، فإن رصيد باقي العالم من المنازل حينئذ سيرتفع بواقع منزل. وبالمثل فإذا ربحت دولارًا بدلًا من إنفاقك دولارًا، فإن رصيد باقي العالم من الدولارات حينئذ يرتفع بواقع دولار؛ لأنك أنتجت من السلع ما تساوي قيمته دولارًا ولم تستهلك سلعًا بنفس القيمة.

من ذا الذي يحصل على هذه السلع بالضبط؟ تعتمد إجابة هذا السؤال على الكيفية التي تدخر بها نقودك. ضع دولارًا في بنك وسوف ينخفض معدل الفائدة البنكية بالقَدر الكافي لشخص ما في مكان ما كي يمكنه تحمل أعباء ما يساوي دولارًا إضافيًّا للتمتع بعطلة أو لإضافة مزيد من الرفاهية لمسكنه. وإذا وضعت نفس الدولار في مرتبة سريرك فسوف تدفع الأسعار دفعًا نحو الانخفاض بالقَدر الكافي لشخص ما في مكان ما كي يمكنه تحمل أعباء ما يساوي دولارًا إضافيًّا للتمتع بشرب كوب من القهوة مع وجبة عشائه. كان سكروج دون شك مستثمرًا في غاية الحذر عندما يتعلق الأمر بممتلكاته ومصالحه، وكان يقرض أمواله بالفائدة. وبجانب بطلنا هذا، توجد شخصية خيالية أخرى تحمل نفس الاسم وهي شخصية سكروج ماك دك Scrooge

McDuck وهي تلك الشخصية الكرتونية المعروفة بالثراء والبخل التي تظهر في الأفلام التي تنتجها شركة والت ديزني. ملأ سكروج ماك دك سردابًا من الدولارات الورقية التي لم يفعل بها شيئًا سوى اللهو عليها. وبغض النظر عن الأسلوبين، فإن إبنزر سكروج نجح بما فعله في دفع معدل الفائدة للانخفاض أما سكروج ماك دك فقد نجح في دفع الأسعار للانخفاض. وكلٌّ من الشخصيتين قد أثرى جيرانه بنفس القَدر الذي يُثري به أمثال اللورد مايور جيرانه والذي دعا المدينة بأسرها لتناول وجبة عشاء عيد الميلاد في قصره.

تخبرنا قوانين علم الرياضيات أنه إذا تناول سكروج قدرًا أقل من الطعام، فسوف يوفر تصرفه هذا قَدرًا أكبر من الطعام لشخص آخر. أما قوانين علم الاقتصاد فتخبرنا أنه إذا لم يوجد ذلك الشخص الآخر الذي يرغب في هذا القَدر الإضافي من الطعام، فيجب إذن إجراء تعديلات — إما فيما يخص الأسعار أو فيما يخص معدل الفائدة — وذلك إلى أن يأتي الشخص المنشود الذي يرغب في هذا القَدر الإضافي من الطعام.

وفي الحقيقة أرى أنه لا توجد جدوى كبيرة من وراء التشكيك في مصداقية قوانين علم الاقتصاد، ولا جدوى على الإطلاق من وراء التشكيك في مصداقية قوانين علم الرياضيات، لكن عندما دافعتُ عن سكروج للمرة الأولى في مقال مطبوع، وجدتُ أن هناك عددًا من القراء يدلي بدلوه في هذا التشكيك.

كانت حجة هؤلاء القراء تتركز فيما يأتي: إذا كان لدى سكروج صندوق من الذهب على سبيل المثال، ويرفض أن ينفق شيئًا مما في هذا الصندوق. وفي الوقت نفسه كان جاره كوثبرت كراتشت — أحد شخصيات مسرحية ديكنز أيضًا — يتضور جوعًا، فإذا قرر سكروج توظيف كوثبرت كراتشت لديه ليعمل في خدمته، فسيحصل كوثبرت على أجر من الذهب يمكن أن يقايض به على ديك رومي، وهكذا فكلما أنفق سكروج أكثر زاد قَدر الطعام الذي يتناوله كوثبرت.

قد تبدو الحجة السابقة رائعة ولكن أصحابها أغفلوا أمورًا مهمة وهي أن الديك الرومي الذي سوف يشتريه كوثبرت لا يأتي من العدم وإنما يجب أن يشتريه من مكان ما، وبالطبع لن يشتري هذا الديك الرومي من سكروج؛ لأنه لم يبذر أمواله قط على شراء مثل هذا الديك الرومي من الأساس. يمكن أن يشتري كوثبرت هذا الديك الرومي بدلًا من ذلك من جار آخر، دعنا نطلق على هذا الجار اسم إيجموند.

ما الذي يمكن أن يقنع إيجموند حتى يتنازل عن الديك الرومي ويبيعه لكوثبرت؟ تعتمد إجابة هذا السؤال على تفاصيل النظام المصرفي والتجاري المحلي، ولكننا يمكن أن نتخيل قصة ذات قَدر كبيرٍ من احتمالية الحدوث: فعندما يذهب كوثبرت لشراء الديك الرومي، يلاحظ صاحب المتجر الذي يبيع الديوك الرومية أن عدد المشترين يفوق عدد الديوك الرومية المعروضة للبيع، ومن أجل ذلك يقوم برفع سعر الديك الرومي ويستمر في رفع الأسعار حتى يدفع اليأس شخصًا مثل إيجموند نحو الانصراف.

أو ربما يدفع ارتفاع أسعار الدواجن ذلك المزارع الذي يُدعى ادلبرت — أحد شخصيات مسرحية ديكنز أيضًا — لأن يربي مزيدًا من الديوك الرومية، ولكن حينذاك سيندر وجود العمالة والطعام الذي يستخدم في غذاء تلك الديوك لأنهما سيتحولان نحو وجه آخر من وجوه الاستخدام وهو تربية الدجاج، وهكذا يدفع اليأس شخصًا ما نحو الانصراف دون الحصول على دجاجة.

يمكنني القول بأنه توجد نقطة مؤكدة في هذه المسألة هي أن الديك الرومي الذي يريده كوثبرت لا يمكن أن يأتي من العدم، وأنه لا يأتي من عند سكروج، إذن فمن المؤكد أن يأتي من مكان آخر.

أخبرني أحد القراء ذات مرة أن «الذهب الذي يخبئه سكروج كان من الممكن أن يطعم أطفال عمال المناجم الذين يتضورون جوعا.» في الواقع هذا الأمر ليس حقيقيًّا؛ فالذهب يخلو من البروتينات والكربوهيدرات والدهون وأي عناصر غذائية أخرى، ولكن هذا لا يمنع القول بأن الذهب يمكن أن يكون مصدرًا رائعًا للألياف! يمكن أن تقايض الذهب بالطعام، ولكن ذلك سيقود شخصًا ما إلى أن يتناول قَدرًا أقل من الطعام. ألقى هذا القارئ

باللوم على سكروج — متجاهلًا هذه الحقائق — لأنه «أزال رأس المال من الاقتصاد وأجاع من كانوا سيستفيدون من حركة الاقتصاد.» إزالة رأس المال من الاقتصاد! يا لهذا المصطلح! ليكن ذلك درسًا حول خطر إلقاء التعبيرات الطنانة دون توقف للتفكير في كيفية سير الأمور في الواقع العملي.

هل كان سكروج شخصًا بغيضًا؟ الإجابة هي نعم. فهو لم يهتم على الإطلاق بأن إنكاره لذاته سوف يُبْقي الكثير للآخرين. ومع هذا فإن ما يهم في نهاية المطاف هو أنه قد ترك بالفعل الكثير للآخرين.

هل كان سكروج إنسانًا أنانيًّا؟ الإجابة هي لا بكل تأكيد. فقد كان بخيلًا وشتان الفارق بين الصفتين. ففي حين يعبر مفهوم الأنانية عن المطالبة بنصيب أكبر من موارد العالم، فإن مفهوم البخل يعبر عن المطالبة بنصيب أقل من تلك الموارد، وفي الحقيقة لا يوجد إنسان يمكن أن نطلق عليه لقب البخيل الأناني.

هل كان سكروج شخصًا غير محسنٍ؟ الإجابة هي نعم ولا في آن واحد، فالإحسان يعني الاستهلاك بقَدر أقل مما يؤدي إلى إبقاء القَدر الكبير للآخرين. وبما أن سكروج قد استهلك بالفعل أقل ما يمكن أن يكون، فيمكن القول بأنه استنفد قدرته على الإحسان. ولأنه لم يضع في حسبانه تناول الطعام على أية حال، فمن ثَمَّ فإن أي قَدر من الطعام منحه إلى كراتشت كان سيأخذ طريقه إلى فم أي شخص آخر وليس إلى فمه هو إن لم يعطه إياه.

اكْتُشِفَ الذهب في عام ١٨٤٨م في «سترز ميل» **Sutter's Mill** بالقرب من سان فرانسيسكو. بعد هذا الاكتشاف بسنوات قليلة، هاجر إلى الغرب ما يصل إلى ثلاثمائة ألف من الساعين وراء الذهب، كان معظمهم من الشباب الطموحين الباحثين عن الثروة. حدث هذا الأمر في زمن لم يكن فيه سوى ثلاثة ملايين من الرجال دون سن الأربعين عامًا في كل أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية.

و طوال مدة الحفر التي كانوا يقومون فيها باستخراج الذهب،لم يذهب أي من هؤلاء الشباب الطموحين ليعمل في مزرعة، أو يدير متجر بقالة،

أو حتى يبدأ مشروعًا تجاريًّا. وهكذا كان هذا الكشف عن الذهب عبئًا على الاقتصاد، لدرجة أن التأثير السيئ لموجة السعي وراء الذهب في كاليفورنيا على الاقتصاد تتساوى تمامًا مع تأثير حرب عالمية دارت رحاها خارج الولايات المتحدة.

جمع بعض عمال المناجم ثروات مالية، ولكن لم يكن أي منهم منتجًا من الناحية الاجتماعية؛ ففي أحسن الأحوال، وجدوا الكثير من الذهب، ولكن الذهب لا يكاد يكون ذا قيمة اجتماعية، فلا يمكن لأحد أن يأكل الذهب بدلًا من الطعام حتى لو كان طفلًا يتضور جوعًا، ولا توجد له جدوى كبيرة فيما عدا ملء الفم به كأسنان ذهبية براقة، أو استخدامه لصنع مجوهرات جميلة.

وفي الواقع فإن قيام المجتمع بتخصيص الكثير من العمال المنتجين للقيام بمثل هذا النشاط غير المنتج يُعد ضربًا من ضروب الجنون، تمامًا مثلما ترسل أولادك ذوي الثمانية عشر عامًا إلى تلك المؤسسات التعليمية التي يشربون فيها الجعة ويلعبون بالأطباق البلاستيكية الطائرة طيلة أربع سنوات. ومن حسن الطالع أننا نستطيع — على الأقل — أن نتحمل مثل هذا التبذير بأفضل مما كان يتحمل أجدادنا في القرن التاسع عشر.

هناك طريقتان للثراء: يمكنك خلق ثروات جديدة أو يمكنك الاستيلاء على ثروة إنسان آخر. عامل المنجم الذي يحفر بحثًا عن الذهب لا يخلق أية ثروة ومع ذلك يصبح ثريًّا في نهاية الأمر. والسؤال الآن هو: ثروة من تلك التي أخذها عامل المناجم هذا؟

يجمع هذا العامل الثروة شيئًا فشيئًا من كل شخص آخر يحب امتلاك الذهب ويسهم عن طريق زيادة المعروض من المعدن الأصفر النفيس في دفع سعره للانخفاض وإن كان بنسبة ضئيلة للغاية. المصدر الحقيقي لثروة عامل المناجم يأتي من هذا الانخفاض الضئيل في سعر الذهب مضروبًا في عدد الملايين من الناس الذين يحبون امتلاك قطع الذهب الخام أو امتلاك المشغولات الذهبية.

لا يكسب عامل المناجم الفاشل شيئًا لنفسه ولا يفرض أية تكاليف على جيرانه. وفي المقابل، يكسب عامل المناجم الناجح ثروة ويكلف جيرانه ثروة جماعية، ولكن من وجهة النظر الاجتماعية — التي تأخذ بعين الاعتبار عامل المنجم وجيرانه — فإنهما يقفان على نفس الدرجة من الفشل والبؤس.

اليوم، وبدلًا من السعي نحو الذهب في كاليفورنيا، أصبح لدينا ظاهرة السعي نحو لعب البوكر Texas Hold'Em — التي بدأت في تكساس في مطلع القرن العشرين ثم انتقلت لكازينوهات أمريكا الشمالية وأوربا فيما بعد — وهو نشاط — وإن كان مربحًا — إلا أنه غير ذي جدوى من الناحية الاجتماعية. (يقصد بغير ذي جدوى من الناحية الاجتماعية أن اللاعبين أو المتفرجين فقط هم من يقضون وقتًا طيبًا). وفي البوكر — تمامًا كما في تعدين الذهب — لا يمكنك الفوز إن لم يخسر شخص آخر. الفارق الوحيد هو أنه في لعبة البوكر يصبح بعض اللاعبين أثرياء على حساب باقي اللاعبين، أما في تعدين الذهب، فعمال المناجم يصبحون أثرياء على حساب الناس في كل مكان في العالم.

إذا لعبت نسبة ١٠٪ من جملة السكان لعبة البوكر طوال الوقت، سيكون العالم أكثر فقرًا. ولكن لحسن الحظ فإن هذا لن يحدث؛ لأن لاعب البوكر العادي لا يكسب أي شيء، وهو ما يضع حاجزًا طبيعيًّا يمنع الدخول إلى هذه المهنة. ولكن عامل المناجم العادي يمكن أن يكون ناجحًا على الأقل حتى يظهر بضع مئات الآلاف من المنافسين المعاصرين. وهكذا فإن السعي وراء الذهب لسوء الحظ يمكن أن ينمو نموًّا سريعًا، ويبقى السعي نحو البوكر محدود النمو، ولكن يمكن القول: إن كليهما في ذاته كارثة اجتماعية.

وجود الذهب في المنجم يماثل وجوده في سرداب، فهو عديم الأذى حتى يأتي شخص ما ويستخرجه ويبدأ في إنفاقه.

هناك تشابه كبير بين التعدين وبين التلوث، حيث إنه يأخذ مواد غير ضارة ويحولها إلى شيء ضار. ويقصد بكلمة «ضار» أنه ضار لكل شخص يتأثر عندما يرتفع سعر الذهب. (وفي الحقيقة فإن التعدين يعد — في الغالب — أسوأ

من التلوث لأن التلوث على الأقل منتج فرعي من منتج أساسي مفيد.) ومن أجل ذلك فمن الذكاء عدم تشجيع مثل هذا النوع من النشاط، فقد كان من الواجب فرض ضرائب على تعدين الذهب منذ قرنين من الزمان.

يقف البخيل على النقيض من عامل المنجم، فما يستخرجه عامل المنجم من باطن الأرض يدفنه البخيل من جديد في الأرض (على الأقل بالمعنى المجازي وأحيانًا بالمعنى الحرفي). ولهذا فإن كان من الواجب فرض ضرائب على عمال المناجم، فإن من الواجب دعم البخلاء.

والتوفير هو الإحسان ويجب أن يعترف النظام الضريبي بذلك. فإذا كان النظام الضريبي يمنح تخفيضات لأعمال التصدق والإحسان، فينبغي أن يكون هناك تخفيض للضرائب كمكافأة للادخار. يمثل ما تكسبه ولا تنفقه بمنزلة مساهمتك لهذا العالم، وهي ستكون مساهمتك سواء تبرعت بها أو وضعتها في سرداب.

بالطبع هناك دائمًا خطر تدخل بعض الأشباح التي تقنعك بإنفاق مدخراتك. وعند هذه النقطة يكون من المنطقي — إن كان فرض الضرائب به أي قدر من المنطق — أن نبدأ في فرض الضرائب عليك. وهذا بالضبط مغزى حسابات التقاعد الفردية: فهم يحمون مدخراتك من الضرائب طالما أنك تدخر ولكن ليس أكثر من ذلك، أي أن ذلك يحدث طالما تترك الآخرين يستمتعون بثمار عملك.

لا يدرك المبدعون العظماء أحيانًا المعاني العميقة الموجودة في أعمالهم. ومع أن تشارلز ديكنز ربما لم يدرك هذا الأمر، إلا أن المغزى الرئيسي من رواية «أنشودة عيد الميلاد» هو أنه لا يجب أن تكون هناك حدودٌ لإسهامات جمعية القراءة الدولية IRA. هذا الأمر مستقل تمامًا عن كل الأسباب الأخرى الكامنة وراء وجوب تشجيع النظام الضريبي للادخار (مثل الآثار الإيجابية على النمو الاقتصادي).

وهكذا فإذا كان عيد الميلاد هو وقت نكران الذات، فبالتأكيد سيكون إبنزر سكروج أحد أهم رموز عيد الميلاد. أنا أقصد سكروج القديم وليس سكروج المعدل، فالضرائب هي التي في حاجة إلى التعديل وليس البخلاء.